فكتور سَحَاب

Sahhab, Fiktur

العرب وتاريخ المسألة المسيحيّة

دار الوحدة للطباعة والنشر
بيروت . لبنان

دار الوحدة
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

شارع ليون - الحمراء - بناية مبشر -
ص.ب ١١٣/٦٣٨٤ هاتف: ٣٥٣٨٨٥
برقيًا (دالوحدة) بيروت - لبنان

الإهداء

إلى كل عربيّ مسيحي
يؤمن بعروبته
ويقاتل لنُصرتها .

العرب
وتاريخ المسألة المسيحية

فكتور سَحّاب

مقدمة

منذ صدور كتاب «من يحمي المسيحيين العرب» ، عن دار الوحدة ، سنة ١٩٨١ ، غزت إسرائيل لبنان ، ممهدة لغزوها بدعويين : أولاهما لتسويغ غزوها أمام العالم بحجة الدفاع عن الذات ، والثانية لتسويغ تحالفها مع الفريق اللبناني المناهض للعروبة ، وتحالفه معها . وقالت في الدعوى الثانية إنها قادمة «لحماية» مسيحيي لبنان . ومنذ هذا الغزو حلت بالمسيحيين في لبنان من الكوارث ، ما لم يحل بهم في عصور طويلة . فهُجّر سكان مناطق كاملة في الجبل وجوار صيدا ، بعدما انخرط «حُماة» هؤلاء السكان في المشروع الإسرائيلي الذي لم يكن في حقيقته حماية إسرائيلية للمسيحيين ، بل محاولة لتجنيد مسيحيين لحماية إسرائيل .

والبطريرك الماروني مار أنطونيوس بطرس خريش أصاب الحقيقة ببساطة حين قال في السنة الماضية في رسائل نشر

بعض مضمونها ، إن الغرب جرّع المسيحيين سم كراهة الإسلام والمسلمين خدمةً لمصالحه وطمعه بالشرق من طريق التفرقة وبذر الخلاف (*) .

وكانت هذه هي خلاصة ما جاء في كتاب «من يحمي المسيحيين العرب» ، قبل سنوات .

لكن الحقن الإعلامي المواظب ، وتشويه الوعي التاريخي في ضمير الناس في لبنان لم يتوقف بعد أمثولة الاجتياح ، وبعد الخلاصة التي استنبطها البطريرك خريش من هذا الغزو . وظلت المؤامرة تعتمد اعتماداً كبيراً على إقناع الناس بأن المسيحية العربية نقيض للعروبة والإسلام ، وبأن الحماية تأتي من الغرب أو أداته المعروفة ، حتى دخل في روع الجموع أن الانفصال عن العروبة ومناقضة الإسلام كفيلان بحماية المسيحيين العرب ، مع أنهما لا يكفلان إلا القضاء على المسيحيين العرب ، مثلما يحدث لكل من يناقض بيئته وأحكامها الحتمية .

هذا الكتاب محاولة لتصحيح كثير من «الأخطاء الشائعة» في شأن تاريخ العروبة والمشرق العربي ، وعلاقة الغرب بالمسيحية العربية الأولى والمتأخرة ، وعلاقة هذه المسيحية

(*) تجد ما نشر في هذا الشأن ، في الملحق الأول بآخر هذا الكتاب .

بالإسلام . وهو كتاب وُضع على عجل ، لكنه ثمرة سنوات من دراسة تاريخ المنطقة قبل الإسلام . وكانت مناسبة كتابته مناقشة آراء لبطريرك إنطاكية للروم الأرثوذوكس ، نُشرت في صحيفة «الجمهورية» اللبنانية في السادس من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥ ، وطالب فيها البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم بترك الرآسة في لبنان للمسيحيين ، وبترك نصف مقاعد المجلس النيابي للمسيحيين على أساس طائفي ، وبأخذ قسط من العروبة لا يتعدى ما يأخذه الحكام العرب منها في سلوكهم السياسي (**) .

كانت الحاجة إلى وعي تاريخي مصحَّح ومصحِّح ، تلحّ منذ زمن . لكن المفاجأة التي أحدثها تصريح البطريرك هزيم أبطلت أي مسوّغ للتأخير ، فكان هذا الكتاب .

فكتور سحّاب

١٥ شباط (فبراير) ١٩٨٦

(**) تجدها في الملحق الثاني بآخر الكتاب .

الفصل الأول

العروبة قبل المسيحيّة

صاحب الغبطة ،

بعد واجب الاحترام ، علينا واجب أن نصدقك الكلام .

وصدق الكلام غالباً ما يحجم عنه من في مثل حالي ، حيال من في مثل مقامكم ، تعظيماً وتوقيرا . لكن رهبة المستقبل الآتي وثقل التبعات بحماية الذراري والعيال ، من غامض الأحوال ، لا يسمحان بكتم ما في الصدور من خواطر تتعلق بأمورٍ خطيرة كالتي تناولها حديثكم الأخير لصحيفة «الجمهورية» اللبنانية [1] ، وما في هذا الحديث من أقوال قد لا تختلف فيها الآراء فقط ، بل تتضاربُ المشاعر أيضا .

ولقد قرأنا بانتباه حديثكم في شأن العروبة ، وأحسسنا أن مَنْ قَبِلها أخيراً ، إنما قَبِلها على مضض ؛ وكأن العروبة

(١) في ٦ / ١٢ / ١٩٨٥ .

قصاص لا بد من تخفيف قسوته ، أو كأنها أمر مفروضٌ من خارج ، على من لا رغبة له فيها . فقلتم «إن المنطقة كانت كلها مسيحية في الأساس ، بما في ذلك الحجاز ، لهذا سبق لي أن قلت إن المسلمين هم ضيوف علينا نحن المسيحيين» .
وتساءلناونحن نقرأ هذا القول : إذا كان المسلمون اليوم هم العرب الذين خرجوا من أرض الحجاز قبل أربعة عشر قرناً ونشروا الإسلام في دياره ، فعلى من حلّ هؤلاء العرب ضيوفاً ؟ هل تقصدون القول إنهم عرب حلّوا ضيوفاً على الساميين ، على غرار ما درج عليه المستشرقون في دراساتهم ، أم إنكم تقصدون القول إنهم مسلمون حلّوا ضيوفاً على مسيحيي ذلك العصر ؟

اسمحوا لنا يا غبطة البطريرك أن نجادل في الاحتمالين .

ساميون وعرب

إن جمهرة المستشرقين الغربيين على اختلاف عقائدهم الدينية ، والملحدين منهم أيضاً ، يجمعون على أن قصة نوح وأولاده سام وحام ويافث ، إنما هي خرافة ، أو أسطورة (إذا لطّفوا لفظهم) ، أو يعدّونها في أفضل الحالات تمثيلاً رمزياً لنشوء بعض الشعوب التي انتشرت في الأرض . ولكنهم جميعاً ، وهم لا يؤمنون بوجود نوح وأولاده وجوداً تاريخياً ،

يصرّون منذ ما يقربُ من قرنين على إطلاق تسمية الساميين على كل الشعوب التي خرجت من الجزيرة العربية ، أو مكثت فيها . إلا أن السنوات الأخيرة شهدت من يعترض هذا المنطق ، ويستغرب نسبة الشعوب إلى «أسطورة رمزية غير علمية» ، ويفضّل نسبتها إلى أرض الجزيرة العربية التي لا يختلف الآن عالمان في خروجهم منها . إن للدكتور كمال سليمان الصليبي ، عالم اللغات السامية ، رأياً واضحاً في هذا الشأن . والدكتور إدمون ربّاط يجزم بلا تردد «أن الساميين جميعهم عرب» .

ولكننا مع هذا سنقطع الجدال ونوقف الاسترسال فيه ، لنبقي القديم على قدمه حتى يأتي العلم بالرأي البات . وسنفترض أن الساميين ساميون والعرب عرب ، مع من افترضوا ذلك . ونتساءل : هل العرب ضيوف في ديارنا حقاً ؟

يا صاحب الغبطة ، أنتم تعلمون أن الدول حين يفد إليها وافد تقيم عليه سلطان دستورها حتى تقرر إلى متى يظل هذا الوافد ضيفاً ، ومتى يتحول إلى مواطن له ما لأبناء البلد ، وعليه ما عليهم . والدساتير تتباين . فبعضها يهب حق المواطنة في خمس سنين ، وبعضها في عشر . لكن تاريخ الدنيا كلها لم يشهد دستوراً يعدّ «الوافد» ضيفاً ، ولو مر على وفوده

ما يقربُ من ثلاثة آلاف سنة .

يقول جون سبنسر ترمنغهام (٢) إنـه لا بد من الإعـراض عن الظن أن العرب ظلوا يقيمون في شبه الجزيرة حتى خرجوا بـالفتح الإسـلامي . فـالعـرب سكنـوا في الـواقـع سـوريـة وفلسـطين ووادي الرافـدين وبـابـل وأجـزاء حتى من غـرب إيران . وتؤكد دراسـات المستشرقـين أن باديـة الشام كـانت تسكنهـا القبائـل العربيـة مئات السنـين قبل الميـلاد . وأقدم النصوص التي تشير إلى هذا الأمر نصٌّ تاريخه سنة ٨٥٤ قبل المسيح (٣) يجزم أن العـرب كانت لهم حكـومات في المنـطقة حينذاك . والمؤرخ الروماني بلينيوس (٤) يقول إن بلاد العرب آنـذاك (في أواخـر القـرن الأول للميـلاد) تمتـد حتى جبـال آمانوس في الشمال (لواء الاسكندرونة في تركية الآن) .

ولعل من أغرب حقائق التاريخ المطموسة أن جميع الدول

---

(٢) «Christianity Among the Arabs in Pre - Islamic Times» , Longman London and New York - Librairie du Liban , 1979 . p.1 .

(٣) D. D. Luckenbill : «Ancient Records of Assyria and Babylonia» vol. 1. p. 611.

(٤) «المفصّل في تاريخ العرب قبـل الإسلام» ، للدكتـور جواد عـلي ، المجلد الأول ، ص ١٤٤ . دار العلم للملايين ، بيروت ـ دار النهضة ، بغداد . ١٩٧٦ .

المعروفة في سورية الطبيعية وفلسطين في زمن السيد المسيح كانت دولاً عربية يُهيمن عليها الحكم الروماني . فالمؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس ، في القرن الأول للميلاد ، يؤكد [٥] أن العرب الأنباط يسكنون في منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات مروراً ببلاد الشام حتى تتصل بالبحر الأحمر . أما لبنان وحوران وشمال فلسطين فكانت تحكمها قبائل اليطوريين العربية التي عاش المسيح بين ظهرانيها في الناصرة ، وامتد ملكها إلى بعلبك في أيام الملك اليطوري العربي بطليموس بن مينايوس ، قبيل الميلاد [٦] . وفي أيام مَلِكِهِم سوهومس ، ضُمّت أرضهم إلى مقاطعة سوريا سنة خمسين للميلاد [٧] . وكانّ حكم اليهودية حتى حكماً عربياً [٨] ذلك أن هيرودوس الملك إنما كان إيدومياً عربياً ، اعتنقت قبيلته الدين اليهودي ، ولم يكن عبريا .

أما حمص فتاريخها يشبه من أوجه عديدة تاريخ تدمر . فقد حكمتها أسرة عربية ، وازدهر تاريخها إثر الضعف الذي أوهن السلوقيين قبل المسيح بنحو قرنين . وفي أيام بومبيوس

---

(٥) «المفصّل . . » نفسه ، المجلد الأول ص ٥٥ .

(٦) «المفصَّل . . » نفسه . المجلد الثاني ، ص ٦٢٣ .

(٧) «المفصّل» . . نفسه . المجلد الأول ، ص ٤٤٣ .

(٨) «Christianity Among ..» op. cit., p. 38

كانت مدينة الرستن المجاورة لحمص مقر أسرة عربية حاكمة . واستدل الباحثون من أسماء ملوك حمص على أصلهم العربي ، وهي ترد أيضاً في نصوص صفوية عربية [٩] .

بل إن المؤرخ الروماني بلينيوس أدخل الرُها في جملة المدن الواقعة في الأراضي العربية ، على رغم أنها اليوم في تركية . وقامت فيها ، في القرن الثاني قبل الميلاد مملكة عدّها الكتبة اليونان والرومان مملكة عربية بقاطنيها وحاكميها [١٠] . وينسب المؤرخ المسيحي العربي غريغوريوس بن العبري [١١] إلى ملك الرُها العربي ، الأبجر ، أنه راسل السيد المسيح قبيل واقعة الصلب . وعلى الرغم من أن إدوارد غيبون يصف هذه الرواية بأنها خرافة [١٢] ، إلا أنّ الحكم العربي للرها وغيرها من المدن والبلاد في سورية الطبيعية ومناطق ما بين النهرين ، قبل الميلاد ، أمر لا يماري به العلماء .

---

(٩) «المفصَّل . .» المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٦٢٢ .

(١٠) «المفصّل . .» نفسه ، المجلد الثاني ، ص ٦١٩ و٦٢٠ .

(١١) «تاريخ مختصر الدول» ، ص ٦٦ و٦٧ . دار المسيرة ، بيروت . بلا تاريخ ، ولا ذكر للمحقق .

(١٢) «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها»، لإدوارد غيبون ، المجلد الثاني ص ٥٤٧ . تعريب محمد علي أبو ريدة وغيره ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . القاهرة .

ولعل من أغرب الحقائق الملموسة أيضاً ، على صعيد التاريخ الرائج بين الناس ، أن دين المسيح نشأ في بيئة يغلب عليها الطابع العربي بلا جدال . ففي أيام سترابو الجغرافي والمؤرخ اليوناني الذي عاصر السيد المسيح ، كان العرب في جملة سكان مدن فلسطين ، القدس ويافا ومنطقة الجليل اليطورية آنذاك . وذكر سترابو أن العرب سكنوا الأجزاء الغربية من اليهودية قروناً عديدة قبل الميلاد (١٣) . ومملكة الأنباط التي كانت تهيمن هيمنة كبيرة على أجزاء كبيرة من سورية والأردن وفلسطين (في التقسيم الأوروبي الحديث للبلاد العربية) بلغت ذروة مجدها وقوتها أيام الملك الحارث الرابع الذي حكم من سنة ٨ قبل الميلاد إلى سنة ٤٠ بعد الميلاد (١٤) . وقد تنقل السيّد المسيح في معظم سني حياته في شمال فلسطين ، بين اليطوريين العرب ، وفي منطقتي الجولان وحوران بين الصفويّين العرب ، ويعتقد أن الجبل الذي انزوى إليه السيد أربعين يوماً موقعه في ديارهم . ولم

---

(١٣) «المفصَّل . . » المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٦٥١ .

(١٤) G. W. Bowersock : «A Report on Arabia Provincia», Journal of Roman Studies , 61 (1971) , p. 223 .

يختلط المسيح بكثير من اليهود العبريين إلا قليلاً في القدس وفي مناطق ارتحل إليها مبشرا .

ولا مراء في أنه اتصل اتصالاً وثيقاً بالعرب ، وتحادث معهم كل يوم في موطنه الجليل (١٥) . وكان جهده التبشيري الأول في المناطق الوثنية لا اليهودية . ويعدد القديس مرقص في إنجيله جموع المحتشدين الذي وفدوا إلى بحيرة طبرية ليشاهدوا السيد المسيح ، فيذكر جموعاً من الجليل واليهودية والقدس وإيدوم وشرق الأردن وجوار صور وصيدا . وهذه المناطق كانت تغلب عليها الديانات الوثنية ، باستثناء منطقة اليهودية . ويؤكد تريمنغهام أن جموع الفلاحين العرب في شمال فلسطين وجنوب لبنان هي التي كانت تحتشد من حوله حين يبشر . بل يعتقدُ أن الثورة التي كانت تستعر نارها في الجليل حاولت أن تجعل من السيد المسيح زعيماً سياسياً ، فيما كان اليهود معرضين عنه .

وإذا كَانت فلسطين أيام السيد ، يهودية في وعينا التاريخي الذي أحسنَ اليهود التأثير فيه ، إثر قرون من المبالغة والتحوير ، فإن سترابو لم يكن ينظر إلى فلسطين أيام المسيح على أنها بلاد يهودية ، على الرغم من الجاليات اليهودية التي

---

(١٥) «Christianity Among..» , op. cit., pp. 41, 42.

امتهنت الرعي فيها . وبقيت أسرة السيد في الجليل ، وأحاط الغموض بها سنوات طويلة ، قبل أن يبدأ دوميتيانوس ، وفقاً لما قاله يوزيبيوس في «تاريخه الكنسي» ، تحقيقاً لمعرفة من بقي في الجليل على قيد الحياة من أسرة المسيح (١٦) .

وقد اضطرّ الرسل إلى مغادرة الجليل . لكن بولس الرسول اهتدى في أرض عربية . ويلاحظ تريمنغهام أن أول المهتدين خارج إطار صحابة السيد المسيح كانوا عرباً أعلنوا إيمانهم ، سنتين أو ثلاثاً فقط بعد واقعة الصلب .

وفي رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس أن دمشق كانت في أيدي ملك اسمه الحارث ، وأنه همّ بالقبض عليه . كذلك يروي بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية أنه ذهب إلى العربية ، ثم رجع إلى دمشق . والرأي الراجح عند علماء العهد الجديد ، أن الحارث المذكور هو ملك النبط الحارث الرابع الذي استولى على دمشق سنة ٣٧ للميلاد (١٧) .

وفيما كانت سياسة رومة الثابتة هي اضطهاد المسيحيين ومحاولة قمع الدين الجديد لمنع انتشاره والقضاء عليه ، كانت

---

(١٦) «Christianity Among ..» ibid, p. 42.

(١٧) «المفصَّل . .» المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ٤٤ .

البوادي العربية ملجأ المبشرين الأوائل ، وتربة خصبة رعت النبتة الطرية . وتمكن لانكستر هاردينغ ، الذي عمل محافظاً لمديرية الآثار في الأردن من تصوير كتابات ثمودية عربية في شمال الجزيرة ، أرسلها إلى المستشرق إنّو ليتمان ، أحدها يحمل رسماً ظهرت فيه دائرة في داخلها صليب وكتابة قرأها ليتمان «ليشوعه» ، أي ليسوع (١٨) ، واتُّخذت هذه الكتابة على أنها أول دليل على انتشار المسيحية بين الثموديين العرب الذين امتد وجودُهم حتى دلتا نهر النيل (١٩) . ويلاحظ تريمنغهام سرعة انتشار المسيحية في البوادي العربية وبطء انتشارها في جوار إنطاكية التي كان يَغلُب عليها الطابع الهليني اليوناني (٢٠) .

لقد حرصنا في الشواهد التي اختيرت على تجنب ما قد يُشتبه في أنه مغالاة عربي متحمس ، فلم نأت على ذكر مقولة جرجي زيدان ، إن بابل هي مملكة عربية صرف (٢١) ولا

---

(١٨) «المفصَّل . .» المرجع نفسه ، المجلد الأول : ص ٣٢٨ .

(١٩) David F. Graf : «The Saracens and the Defense of the Arabian Frontier», Bulletin of American School of Oriental Studies, 229 (1978), p. 12 .

(٢٠) «Christianity Among ..» op. cit. p. 43.

(٢١) «العرب قبل الإسلام» ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ـ ١٩٧٩ .

أردنا التطرق إلى أطروحة الدكتور نجيب محمد البهبيتي ، إن أشور وبابل هما من ممالك العرب ، وإن ملحمة غلغامش هي المعلقة العربيـة الأولى في التاريـخ [٢٢] ، واكتفينا بـاستشهاد مستشرقين وكتّاب لا شبهة في حماستهم للعروبـة ، فتبينّ أن العـروبة قبـل المسيحيّة في التاريخ ، وأن العـروبة هي التي استضافت المسيحية الفتية ورعتها وحمتهـا من رومة وبـطشها الـوثني الغاشم . وفي مكنتنـا أن نقول ، مستنـدين إلى هـذه الشـواهد جميعـاً ، إن المسيحية إذا كـان لها أن تتخذ صفـة «قومية» غالبة ، فلا شك في أن المسيحية نبتة عربية قبـل أي شيء آخر .

نماء المسيحية في كنف العروبة

سيـدي غبطة البـطريرك ، لن أستغـرق في سـرد وقـائـع تعـرفونها خيـراً منا . لكن في الحـوار العلني فرصـة استنحها لتصحيح ملامح الوعي التاريخي غير الدقيق الذي لُقِّنّـاهُ منذ أن أخذت الدول الأجنبيـة تشكّل وعينـا التاريخي عـلى نسق يلائمها . إن التناقض الذي اصطنعوه بين العروبة والمسيحية ليس من صنـع البـاحث التـاريخي المنصف ، بـل من نتـاج

---

(٢٢) «المعلقة العربيـة الأولى ، أو عند جـذور التاريـخ» . دار الثقافـة ـ الدار البيضاء (المغرب) ١٩٨١ .

مؤسسات الدعاية السياسية التي ورثنا الكثير من أساليبها وأدواتها ، بل ومهامّها من «المبشرين» في القرن الماضي . أما الباحث التاريخي المنصف فيعرف أن المسيحية لم تنشأ فقط في كنف العروبة، بل نمت فيه أيضاً ، حتى إذا أَهَلَّ القرن الثالث للميلاد ، وبادر أوريجينوس إلى جولته في «العربية» ، المقاطعة الرومانية الموافقة للأردن وجنوب سورية اليوم ، وجد الكنائس والأبرشيات منتشرة في كل قرية ومدينة . بل إن الأسطورة تجعل تيمون ، أحد الحواريين ، أول أسقف على بُصرى ، حاضرة العرب النبطية آنذاك (٢٣) . ويقول الأب بطرس ضو في «تاريخ الموارنة» (٢٤) : إن التبشير المسيحي بدأ باكراً في السواحل اللبنانية ، فتأسست كنائس في صور وبيروت وجبيل وطرابلس ، أيام الرسل وتلاميذهم . «أما الجبال وخاصة الجرود العالية فبقيت على الوثنية حتى الجيل السابع» . ولذا عصي جبل لبنان على المسيحية ، حتى فتح المسلمون البلاد .

ولعل من غرائب التاريخ غير المأثورة أن أسرة إمبراطورية سورية (أسرة سبتيموس سيفيروس) هي التي بادرت إلى التسامح مع المسيحيين الذين ظلوا حتى مطلع القرن الثالث

---

(٢٣) «Christianity Among ..» op. cit,p. 51.

(٢٤) دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٧ ، المجلد الأول ، ص ٢١٦ و٢١٧ .

مضطَهدين اضطهاداً رسمياً لا يكلّ . بل ان أول إمبراطور روماني اعتنق المسيحية ، هو فيليبوس العربي الذي ملك خمس سنوات (٢٤٤ ـ ٢٤٩ م) ، حتى قال غيبون «إن عهود الأمراء الذين نبتوا في الولايات الآسيوية كانت أوفق العهود للمسيحيين» (٢٥) . وفيليبوس مولود في بلدة شُهبا ، على الطريق بين دمشق وبُصرى . وفي عهده كان أسقف القدس عربياً أيضا . وفي عصره تعاظم شأن مملكة تدمر العربية ، وتعاظمت مكانة ملكها أُذينة الذي منع تعصب الوثنيين على النصارى ، وحال دون اضطهادهم لهم ، وخوّل إلى النصارى حق بناء الكنائس حيثما شاؤوا (٢٦) . وبعد مقتل أُذينة حكمت زوجته زينب الشهيرة باسم زنوبيا .

ويذكر المؤرخون الرسميّون لرومة وبيزنطية في كتاباتهم اللاحقة أن بولس السميساطي أسقف أنطاكية «هوّد» زينب ، أي جعلها يهودية (٢٧) . ويرى المؤرخون المحايدون أن وصف السميساطي باليهودي لا يتفق والواقع ، وإن هي إلا تهمة

---

(٢٥) غيبون ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ٤٥٥ .

(٢٦) «المفصَّل . . » المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ٩٧ و٩٨ .

(٢٧) ثمة رأي أرثوذكسي رسمي ببولس السميساطي في كتاب د. أسد رستم : «كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى» ، منشورات النور ، بيروت ـ بلا تاريخ ، المجلد الأول ، ص ١٢٠ إلى ١٣٠ .

نُسبت إليه ، لأنه كان مسيحياً موحداً يقول بنبوّة المسيح ولا يقول بألوهته [٢٨] . وأدخل بعض المؤرخين زينب في عداد المسيحيين . وإذا كنّا نتردّد في إثبات هذا لقلّة الشواهد ، فإننا نتردّد أيضاً في نفيه ، لأن الذين اتهموها باليهودية كانت تحدوهم أغراض مذهبيّة مسيحية ، أو حوافز سياسية رومانية ، وهي التي قال فيها الدكتور إدمون ربّاط [٢٩] إنها كادت أن تستولي على النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية وتستقل به صافياً للعرب . غير أن اشتراك أساقفة تدمريين عرب [٣٠] في مجمع نيقية (٣٢٥ م) وفي مجمع خلقيدونية (٤٥١ م) يدل على أن المسيحية كانت قد استقرت منذ زمن طويل في الحاضرة العربية الكبرى ، التي اعتنقت صيغة للمسيحية تبدو أقرب إلى الأصول التاريخية ، فقمعتها رومة . أقول هذا لأثبت فضل العروبة على المسيحية في الأزمنة التي كانت المسيحية فيها عقيدة يُدفع ثمن اعتناقها غالياً ، حتى إذا اعتزّت المسيحية سارعت الإمبراطورية الرومانية إلى اتخاذها عقيدة لسلطانها العالمي .

---

(٢٨) «المفصّل» . . المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ١٠٩ و ١١٠ .

(٢٩) «L'Orient Chrétien à la veille de l'Islam» , Publications de l'Université Libanaise , Beyrouth , 1980, pp. 134 - 135 .

(٣٠) «المفصَّل . . » المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ١٢٩ ، و ١٣٠ .

الفصل الثاني

المسيحية العربية الموحِّدة

صاحب الغبطة ،

حتى لا نترك ندحة لسوء الفهم افترضنا احتمالين لقولكم بأن المسلمين ضيوف في ديارنا . فماذا لو كنت لا تقصد العرب ، بل تقصد العقيدة الإسلامية التي انتشرت في القرن السابع للميلاد ؟

لقد بولغ كثيراً في وصف موجات الهجرة العربية الإسلامية من الجزيرة العربية إلى سورية الطبيعية ومصر ، وأسهم في تشويه حقيقة ما جرى أو تحويره ، نمط من الفكر التاريخي يبسّط الحوادث ويمثّل عليها بما يشبه الرسوم البيانية الموجزة . فالمسلمون في سورية الطبيعية ومصر اليوم ليسوا جميعاً حفدة العرب الذين خرجوا من الجزيرة في الفتوح الإسلامية . بل ان قلة من سكان البلاد العربية المسلمين ينتمون إلى الفاتحين ولا شك . نقول هذا مطمئنين ، على الرغم من أن أحداً لا يستطيع بالتحقيق أن يجزم في نسل شعب بكامله من على هذا

البعد في الزمان . لكن العلامة الأرثوذكسي المطران جورج خضر ، وهو من ألمع أساقفة كنيستكم الموقّرة ، يستشهد قول المؤرخ العربي ابن عساكر ، في «تاريخ دمشق الكبير» ، إن سكان سورية ظلوا على دين المسيحية خمسة قرون ، في معظمهم ، حتى الحروب الصليبية ، أي خمسة قرون بعد الإسلام . ولم يتسنّ لي الاطّلاع على النص الذي يستشهده المطران خضر ، لكن المأثور عنه أنه عالم مدقق متّزن وبحاثة في التاريخ . ولذا فإن إشهار معظم سكان سورية الطبيعية إسلامهم بعد الحروب الصليبية ، أو في أثنائها ، يبيح لنا القول إن معظم مسلمي اليوم في سورية (وفي مصر بالأحرى) ليسوا حفدة الفاتحين . وإنما هم من الشعوب العربية (أو السامية إذا شئت) التي سبقت الفتح الإسلامي إلى سورية . ومنهم من ذكرنا في الفصل الأول ، ومنهم بنو سَلِيح الضجاعمة وبنو غسّان ، وغيرهم كثير ، ناهيك بمن وُصفوا بالنبط أو بني إرم . وليس هؤلاء ممن يوصفون بالضيوف في سورية .

ولسنا نشتبهُ في أنكم قصدتم إلى القول إن الإسلام حل ضيفاً في ديارنا على المسيحية . ذلك أن مثل هذا التفكير «البياني» المبسط ، لا يخالف المأثور عنكم فقط ، بل إنه أيضاً التفكير الذي تستند إليه المنظمة الصهيونية العالمية في ادّعائها

حق امتلاك فلسطين . فالديار لشعوبها ، أيّاً كان دينها ، وليست ملكاً للديانات ، وإلاّ لأمكننا أن نشهر «براهمانيّتنا» ، ثم نطالب بالهند ، وقد حاول الدكتور كمال سليمان الصليبي في كتابه الخطير : «التوراة جاءت من جزيرة العرب» (٣١) أن يقول هذا الأمر بإلحاح ، بعدما أساء كثير من الناس والدول فهم مقالته العلمية . واليهود الشقر الزرق العيون أوروبيون تهودوا ، وليسوا عبريين . وتبديل الشعوب دينها لا يُفقِدُها حقّها في أوطانها ، أو يعطيها أوطاناً أخرى . وإذا كان بنو سَليح أو الصَفويون أو اليطوريّون أو الغساسنة قد استبدلوا الإسلام بالمسيحية ، فذلك لا يبدّل من أمرهم شيئا . فوطنهم يظل وطنهم ، وهم أصحابه أولاً وآخراً ، لا ضيوف على أحد أو عند أحد .

أية مسيحية عربية ؟

لكننا سنضرب صفحاً عن هذه الحجج ونفترض أن الأوطان لدياناتها لا لشعوبها . فأية مسيحية يا غبطة البطريرك كانت تمتلك الأرضين العربية ، وما هو المذهب الأول ، أو المذاهب الأولى في المسيحية التي استوطنت بلاد العرب ، وأية مذاهب استوطنت بلاداً أخرى . بتعبير آخر ، ما هي جغرافيا

---

(٣١) ترجمة عفيف الرزّار ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ـ ١٩٨٥ .

المسيحية الأولى ، ومن الضيف ومن المضيف ؟

إن ثمة من يدّعي اليوم أنّ المسيحيّة الأولى لم تكن في مبادئها وأسسها ، على ما نعرفه اليوم . بل ثمة ما يؤكد أن المسيحية الأولى كانت دين توحيد مطلق. ويقول الدكتور مارتينيانو رونكاليا في موسوعته المهمة «تاريخ الكنيسة القبطية» (٣٢) ، إن الكنيسة الأولى كانت تطلب من المؤمنين الجدد النحّاتين أو الرسّامين ، أن يكفّوا عن صنع الوثن ، فإذا رفضوا طُردوا من الجماعة المسيحية . وهذا يذكّرنا بموقف الإسلام من التماثيل والرسوم ، التي خُشي أن تعيد إحياء عبادة الوثن ، فحظّرت بتاتا . ولذا استُبدل بفن الرسم في الإسلام فن الخط والرسم الهندسي التجريدي الذي اشتهرت به العمارة الإسلامية وأبدعت فيه روائع خالدات . والحافز على هذا الحظر هو الرغبة في منع عبادة الصورة والتمثال ، فهذه العبادة اعتُدّت إشراكاً بالله . وقد وظب المسلمون منذ ظهور الإسلام على القول إن المسيحية التي نعرف ليست هي المسيحية التي بشّر بها السيّد المسيح . وصُنّف هذا القول في المعتاد ، محاولة إسلامية لاتهام الأديان الأخرى بتحريف

---

(٣٢) Martiniano Roncaglia : «Histoire de l'Eglise Copte», en 7 vol., Dar Al - Kalima, Liban , 1971. vol III,p. 73 .

التعاليم السماويّة والشرائع النبويّة . غير أن الدراسات المحايدة ، بل المسيحية ، أثبتت فعلاً أن المسيحيين الأولين كانوا يمقتون أشد المقت استخدام التماثيل والصور الدينية . ونسب غيبون هذه الكراهة إلى عداوة المسيحيين الأولين لليونان (٣٣) الذين أكثروا فيها بعد من استخدام الصور والأيقونات وجعلوها فناً رائعاً اشتهروا به ، بعدما انتصر مؤيدو الأيقونات في حرب الكنائس التي نشبت في القرن الميلادي الثامن ، بفعل أثر التجريد الإسلامي (٣٤) . ويقول الدكتور أسد رستم (٣٥) ، إن رومة سبقت غيرها إلى استخدام الصور والتماثيل منذ القرن الميلادي الرابع . ويقول غيبون «إن المحاجّين والمجادلين المسيحيين وجّهوا ذكاءهم إلى مناهضة الوثنيين الحمقى ، الذين كانوا يحنون رؤوسهم أمام ما تصنعه أيديهم» . لكنه يضيف أن عبادة الصور بدأت أولاً «في حرص وتورّع ، واستخدمت الصور المقدسة لتهذيب الجهلة . . وإشباع تحيّز المهتدين الوثنيين . ثم تطور الأمر تطوراً بطيئاً ، وإن يكن حتمياً ، فانتقلت أمجاد الأصل إلى

---

(٣٣) غيبون ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٥٤٤ .

(٣٤) أسد رستم : «حرب في الكنائس» . منشورات الجامعة اللبنانية ، الطبعة الثانية ، بيروت ـ ١٩٦٧ ، ص ١٧ ، وما بعد .

(٣٥) المرجع نفسه ص ٩ .

الصورة ، وأخذ أتقياء المسيحيين يقيمون الصلاة أمام القديس ، فتسرّبت إلى الكنيسة الكاثوليكية شعائر الوثنية ، الركوع وإيقاد الشموع وحرق البخور» (٣٦) . ولا بد من المسارعة إلي القول إن غيبون ولد على المذهب الأنجليكاني واعتنق الكاثوليكية . ولم يكن ممن يُتّهمون بالتحامل على رومة .

وكان رأيه هذا متفقاً مع رأي معظم المذاهب المسيحية الأولى التي انتشرت في سورية الطبيعية ومصر ، قبل أن تتولى الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطية) شأن العقيدة المسيحية ، وتحاول فرض مذهبها الرسمي على جميع المسيحيين .

المذاهب الأولى

وكانت المذاهب المسيحية الأولى شديدة التنوع ، ومبادىء إيمانها شديدة التباين . ففي غور الأردن ظهر الناصريون ، وهم فرقة لا نعرف عنهم إلا ما استمد من منتقديهم . ويبدو أنهم آمنوا بألوهة المسيح واعترفوا برسالة القديس بولس وشبثوا ناموس اليهود ، وارتأوا أن مولد المسيح كان من الروح

---

(٣٦) غيبون ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ .

القدس . كذلك ظهرت فرقة في أواخر القرن الأول ومطالع القرن الثاني للميلاد سمّيت بالكسائية ، وكانوا يختتنون ويلزمون حرمة السبت . وعرفت فرقةٌ أخرى بالفطائريين لأنهم كانوا يعبدون مريم العذراء ويقدمون لها القرابين وعلى الخصوص الفطائر . أما المعادون لمريم ، فسُمّوا كذلك لإنكارهم بقاء العذراء على تبتّلها (٣٧) . وقد أطلق بعض مؤرخي المسيحية على الفطائريين اسم العوديانيين ، نسبة إلى عود ، شماس إحدى الكنائس فيما بين النهرين (٣٨) . وظهرت كذلك فرقة مهمة انقرضت فيما بعد ، تزعمها عربيّ اسمه مُنعم ، وسميت بالعرفانية ، أو الغنوصية (٣٩) .

لكن جميع هذه الجماعات التي لم تَرْقَ إلى مرتبة المذاهب ، لم تتخذ صفة وحجماً يؤهلانها لأن تمثل روح المسيحية «العربية» ، إذا صحّ القول . ذلك أن المذاهب المسيحية المشرقية لم تتخذ سمة ثابتة معادية للغرب ، إلا بظهور المسيحية الموحِّدة ، التي قالت بنبوّة المسيح وأنكرت ألوهته ، وآمنت بمبدأ سيظهر فيما بعد ، مفاده : «لا إله إلاّ الله» .

---

(٣٧) «المفصَّل . .» المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ .

(٣٨) «Christianity Among..» op. cit., pp. 67, 68.

(٣٩) « Christianity Among..», ibid, pp. 51, 52.

ومن أهمّ هذه الفرق الموحِّدة ، وأولها وأطولها عمراً ، الإبيونية ، التي لجأت على ما يقال ، إلى صحراء الجزيرة العربية ، هرباً من قمع دولة بيزنطية . وكانت هذه الفرقة تؤمن بإله واحد ، وتنكر رأي بولس الرسول في السيّد المسيح ، وترى أنه بشر امتاز بالنبوّة وأنه رسول من عند الله ، وأنه ولد من غير جماعٍ ، وأنكر بعض الإبيونيين صلب المسيح وارتأوا أن شبيهاً له صُلب ، واعتمدوا إنجيل متى بالعبرية (٤٠) . وهذه كلّها وقائع إن دلّت ، فعلى أن مقولة المسلمين إن ثمة عقائد مسيحية موحِّدة سبقت المذاهب المعروفة اليوم صحيحة ، ولذا فإن القرآن الكريم في روايته لرسالة السيد المسيح إنما ينفض الغبار عن نزعة مسيحية أولى طُمست في خضمّ الصراع الديني والمذهبي بين الشرق والغرب على مدى قرون .

التوحيد العربي

ويعتقد رينان أن العرب والساميين موحدون بطبعهم ، وأن دياناتهم هي ديانات توحيد . وهو رأي يخالفه فيه نفر من المستشرقين . ويبني رينان مقالته هذه على أن العرب والساميين تعبّدوا لإيل ، وأن اسم إيل هو تحوير لكلمة

---

(٤٠) «المفصَّل . .» المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص ٦٣٤ ، ٦٣٥ .

«الإله» ، واختصار لها . وهو يقول مع القرآن الكريم ، إن العرب كانوا أولاً موحّدين ، ثم حادوا وعبدوا الأوثان فيما بعد . وابتنى فيلهلم شميت نظريته على اعتقاد مماثل (٤١) . وقد جاء كتاب الدكتور كمال الصليبي الأخير ، الذي ننتظر إثبات مقولته أو نفيها بالأدلة الأثرية في عسير ، ليزيد حجة إلى حجج رينان وشميت .

ولذا نعتقد أن المذاهب الأولى المهمة في السياق التاريخي لتطور المسيحية العربية هي تلك التي عبّرت عن هذا النزوع إلى التوحيد . ويقول ابن حزم الأندلسي «إن النصارى الذين يقولون بنبوة عيسى عليه السلام فقط من الآريوسية والمقدونية والبولقانية» (٤٢) والأخيرتان من المذاهب الغربية التي بادت . وهي تدلُّ على أن التوحيد لم يكن مقصوراً على العرب والساميين وحدهم . ولا كانت معتقدات الساميين والعرب موحِّدة وحسب . فالأنباط مثلاً كانوا يعبدون إلهة عذراء هي أم الإله النبطي « ذي الشَرَى » (٤٣) . ويحصي ابن الكلبي

---

(٤١) «المفصَّل . .» المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٤٢) «كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل» ، مكتبة المثنّى ، بغداد (بلا تاريخ إصدار) ، الجزء الأول ، ص ١١٢ .

(٤٣) Toufic Fahd: Le Panthéon de l'Arabie Centrale à la veille de l'Hégire» , Paris , Librairie Orientaliste Paul Geuthner. p 204.

في « كتاب الأصنام » (٤٤) الأوثان التي تعبّد لها العرب . إلا أنــه لا مفــر من أن نــلاحظ أن الــديــانــات المــوحّــدة الثلاث ظهرت في بلاد العرب دون غيرها . وإذا ما قال قائل إن الآراء لا تتفق عـلى أن مبدأ التثليث المسيحي يبيـح هـذا القول ، فإن هذا المبدأ فرضته الدولة البيزنطية فيما بعد ، ولم يظهر في الأزمنة المسيحية الأولى . ويعترف القديس يوحنا فم الذهب وأثناسيوس (٤٥) بأن ألوهة المسيح قلّما ورد ذكرها على لسانه أو لسان حوارييه . ويقول غيبون : «وكان الغرباء عن المسيحية من سكّان رومة وآسية الـذين لم تقع أبصـارهم قط على المسيح ، أكثر نزوعاً إلى الإيمان بألوهته» (٤٦) . وثمة من ينسب إلى بـولس الرسـول (وهـو آسيـوي من قبـدوقيـة ، لم يشاهد المسيح) أنه بدّل المعتقدات الأولى . فيقول أبو الفتح الشهـرستاني : «شمعـون الصفا هـو أفضل الحـواريـين علماً وزهداً وأدباً ، غير أن فولوس [بولس] شوّش أمره وصيّر نفسه شريكاً له ، وغيّر أوضـاع علمه وخلطه بكـلام الفلاسفـة ، ووسـوس خـاطـره . ورأيت رسـالـة لـفـولـوس كتبهـا إلى

---

(٤٤) تحقيق أحمد زكي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

(٤٥) أثناسيوس هو زعيم الاتجاه الكاثوليكي في الإسكندرية في القـرن الرابـع للميلاد .

(٤٦) غيبون ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٧ .

اليونانيين : إنكم تظنون أن مكان عيسى عليه السلام كمكان سائر الأنبياء ، وليس كذلك ، بل إنما مثله مثل ملكيـزداق [ملكيصـادق] وهو ملك السـلام الذي كـان إبراهيم عليـه السلام يعطي إليه العشور ، فكان يبارك على إبراهيم ويمسح رأسـه» (٤٧) . والواقـع أن اتّهام بـولس الرسـول شائـع بين مخـالفي الإيمان الـروماني والبيـزنطي المسيحيـين . لكننـا ممن يعتقدون أن شخصاً واحداً لم يكن في مكنته أن يبدّل كلّ هذا التبديل . ونظن أن الدولة البيزنطية هي التي استـطاعت أن تزيل الكثير من ملامح المسيحية العربية النـاشئة ، لأسبـاب سياسية ، لا يستطيع أن يغفلهـا من يدرس تـاريخ المجـامع الكنسيّة ، منذ عهد قسطنطين .

تلك هي المسيحية العربية التي امتلكت ديارنا العربيـة في سورية والجزيرة العربية وفلسـطين ومصر ، إذا صح امتـلاك الأديان للأوطان . وتلك هي المسيحية العـربية التي قمعتهـا رومة ثم أزالت بيزنطية الكثير من ملامحها التوحيدية قبـل أن يـظهر الإسـلام وريثـاً شـرعيـاً للروح العـربيـة والنـزعـات السامية .

---

(٤٧) «كتاب الملل والنحل» ، مكتبة المثنّى ، بغداد (بلا تاريخ إصدار) الجـزء الثاني ، ص ٦١ .

الفصل الثالث

قمع المسيحية الشرقية

لقد بدأ قمع الغرب للمسيحية العربيّة الموحِّدة بالحرب التدمرية الرومانيّة ، ثم بحرب بيزنطية العقائدية على آريوس . فكان القمع الآتي من الغرب موجّهاً وجهتين : نحو إنطاكية ، ونحو الإسكندرية عاصمتي المسيحية المشرقية الموحِّدة . وكان هذا القمع موقفاً طبيعياً مستمداً من تناقض البيئتين الغربية والشرقية. فرومة كانت شديدة على النصارى منذ البدء ، ولم تكن شدة بيزنطية عليهم فيما بعد إلاَّ إرثاً تولته مع ميراث الإمبراطورية الرومانية . وفيما كان القمع الروماني مستنداً إلى العقيدة الوثنية في حربه على المسيحية العربية الناشئة ، اتخذت بيزنطية لنفسها عقيدة مسيحية خاصة استمدتها من نتاج تطويعها الإيمان المسيحي الأول لمقتضيات الفلسفة اليونانية واستندت إلى هذه الصيغة لقمع المذاهب المشرقية . ويصعب على الباحثين القول إن الغرب أخذ الدين المسيحي من الشرق . وثمة من يؤكد أن رومة وبيزنطية أخذتا

الاسم والرموز فقط من الدين الجديد ، ثم أدخلتا فيه مضموناً خاصاً يختلف عن المضمون الذي كان يراه فيه الساميّون والعرب ، أتباع المسيح الأوّلون .

ولقد بدأ القمع الروماني باكراً في الواقع ، وقبل أن تظهر المذاهب الصريحة في توحيدها ، فالإمبراطور تراجان الذي غزا مملكة الأنباط العربية قسا على النصارى قسوة سَبَقه إليها أباطرة آخرون تُروى أعمالهم في تواريخ لا تحصى . وقد أصدر تراجان سنة ١٢٢ م أمراً لقتل كل مسيحي لا يخلص للقيصر والدولة . فخاف منه أتباع الدين الجديد وتكتّموا [٤٨] . وإذا كان أمر كهذا قد صدر ، فلأن المسيحيين العرب لا بد وأنهم لم يكونوا مخلصين للقيصر والدولة . ولقد أحسّت رومة باكراً أن العقيدة الجديدة ربما تخفي شيئاً من البذور الاستقلالية ، ويبدو أن حاجة الحركات السياسية إلى عقيدة فكرية أو دينية ، ليست حاجة حديثة . كذلك يبدو أن اعتناق العقيدة الجديدة كان ينذر دائماً بموقف سياسي يظهر بمقدار أو بآخر . ويقول ديلاسي أوليري : «لقد كان المسيحيون في رومة وفي إفريقية وبلاد الإغريق قلة

(٤٨) «المفصَّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ٧٣ .

محتقرة ، تتكوّن أساساً من الطبقة الأمية» (٤٩) ، لكنه يضيف قوله «وحين بدأت النهضة المسيحية في النهاية ، كانت هذه الديانة إلى حد كبير قد أُعيدَ تشكيلُها تحت ضغط المؤثرات الهيلينيّة ، وأُعيد وضعُ لاهوتها في اصطلاحات فلسفية» . وهكذا سلكت رومة وبيزنطية مع الدين الجديد سياسة التطويع والتكييف ، بعدما تعاظم شأنه وبدا واضحاً أن القضاء عليه متعذّر . وكانت إنطاكية والإسكندرية البيزنطيتان المختبرين اللذين جرى فيهما التطويع ، الذي كان يتوسّل أحياناً بوسائل الفكر ، وأحياناً بالقوة العسكرية لتحويل المسيحية العربية والمشرقية عن إيمانها تحقيقاً لوحدة العقيدة وتماسك الدولة .

آريوس والمغزى

وإذا استعرضنا بعض واقعات النزاع الذي نشب في الكنيسة حول العقائد المشرقية والعربية الموحدة وغيرها ، لتبيّن لنا بوضوح أن النزاع لم يكن عقائدياً فكرياً صرفاً ، بل كان في

---

(٤٩) «الفكر العربي ومكانه في التاريخ» ، تعريب د. تمام حسّان . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦١ . ص ٢٦ . وهو تعريب لكتاب : De Lacy O'Leary : «Arabic Thought and its Place in History» , London , 1968.

حقيقته صراعاً شرقياً غربيا . ولعل سائلاً يسأل : أين هذا من السياق الذي نحن فيه ؟ إنني يا صاحب الغبطة ممن يعتقدون ، استناداً إلى التاريخ ، أن المسيحية العربية كانت روح المنطقة قبل أن تحوّرها رومة وبيزنطية قسراً لأسباب سياسية ، وأن أهم ما في المسيحية العربية عنصران : أولاً التوحيد ، وهو المحور العقائدي الذي استُنفر من حوله المؤمنون وقاتلوا واستشهدوا مئات السنين . ثانياً أن قوة المسيحية العربية استمدت أسبابها من قتالها مع الغرب دفاعاً عن كرامة المنطقة واستقلالها وكيانها الحضاري . وفهم هذا الأمر مفيد للغاية لأسباب عديدة ، مفيد حتى نفهم أسس الشرعية التاريخية التي استند إليها الإسلام ليعلن أنه هو المعبّر عن روح المنطقة ، ما دام يرث هذين العنصرين : التوحيد في العقيدة ، ومقاتلة الغرب من أجل الاستقلال . وفهم هذا الأمر مفيد حتى نعرف كيف نخرج من الأزمة التاريخية التي يجتازها العرب المسيحيون في عصرنا القائم . فالعروبة لا تأبه الآن بقليل أو كثير أن يؤمن النصارى بالتثليث أو بالتوحيد . لكنها تهتم وتحفل بالموقف من الغرب ، ومن حقها أن تنتظر موقفاً مسيحياً عربياً مقاتلاً من أجل مصير العروبة وكيانها التاريخي والحضاري ، في مواجهة الخطر الغربي المزروع في إسرائيل صراحة ، وفي غير إسرائيل خفية . ومن خير

النصارى العرب أن يعرفوا أن مقاتلة الغرب أحصنت المسيحية العربية وعززتها ، وأن الالتحاق بالغرب أضعفها ودفعها إلى مشارف الهلاك .

ولا يستطيع الباحث في تاريخ المسيحية العربية ، إلا أن يلحظ فيها هذا الروح المكافح الذي شبث موقفه بالاستشهاد والكفاح الديني والسياسي ، قروناً طويلة . ولا ندحة عن ملاحظة قطبين في الصراعات المذهبية المسيحية : شرق وغرب .

لم يتعوّد المؤرخون النظر إلى الصراع بين تدمر ورومة من هذه الزاوية . لكن بولس السميساطي بطريرك إنطاكية الذي قال إن السيد المسيح نبيّ صالح حمل في ذاته روح الله دون أن يساويه في الجوهر ، ناصرته زينب ملكة تدمر . فلما خلعه مجمع في إنطاكية عقد سنة ٢٦٤ ، ثم سنة ٢٦٨ ، بقي في منصبه تؤيده زينب ، فخلعه الإمبراطور الروماني الوثني أورليانوس بعد تغلبه على زينب (٥٠) . فلماذا ينصر إمبراطور وثني فريقاً مسيحياً على فريق مسيحي ، لو لم تكن في ذلك مقتضيات سياسية ما ؟ (٥١) . إن الصراع السياسي

---

(٥٠) «تاريخ الموارنة» ، المرجع السابق ، المجلد الأول ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٥١) في شأن هذه المقتضيات السياسية ، والاقتصادية راجع : «Paul of

والعسكري الخطير الذي كان ناشباً بين تدمر وروما ، واستولت خلاله زينب بقوة القبائل العربية المجتمعة من حولها ، على مصر وسورية وفلسطين وبر الأناضول ، ربما يطبع الأمر كله بالطابع السياسي ، فيفسر إقصاء بولس على أنه إقصاء سياسي ، صدف أن كان لضحيته موقف ديني . أما النزاع في شأن عقيدة آريوس فلا يحتمل مثل هذا الالتباس . فلقد ظل الصراع دينياً وفلسفياً في ظاهره ، ومع هذا انقسم المتصارعون بوضوح إلى فريق غربي وفريق شرقي ، على رغم بعض الاستثناءات التي تُغمِض الرؤية على من لا يُنعم النظر .

واقعات حرب القمع

آريوس راهب ليبي استقر كاهناً في الإسكندرية في مطلع القرن الرابع الميلادي وقال بأن الأب وحده يستحق أن يُدعى الله . وأما الإبن فمخلوق بإرادة الأب فوق سائر

═ « Samosata Zenobia and Aurelian , the Church , Local Culture and Political Allegiance , in Third - Century Syria» , by Fergus Millar , Journal of Roman Studies , 61 (1971) , pp. 1 - 17 . وكذلك : «Marchands et Chefs de Caravane à Palmyre» , par Ernest Will , in Syria , 34 (1957) , pp. 262 - 277 .

المخلوقات ، وأما الأقانيم الثلاثة فواحد باتفاق المشيئة لا بالجوهر . فجمع الإمبراطور قسطنطين ، إمبراطور بيزنطية الذي أباح المسيحية سنة ٣١٣ بمرسوم ميلانو ، مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ، فوضع المجمع الدستور الشهير القائل بمساواة الإبن للأب في الجوهر ، وبأن الإبن إله من إله (٥٢) . وفي هذا الجدال الذي استمر حتى آخر القرن الرابع ولم ينته بصدور قرارات نيقية ، برز المدافعون الأوّلون عن مذهب آريوس من أسقفيات الشرق : تيودوسيوس أسقف اللاذقية ، وأوسابيوس أسقف قيصرية فلسطين وأوسابيوس أسقف نيقوميدية . واستطاع هؤلاء الأساقفة عزل بطريرك إنطاكية أوسطاتيوس سنة ٣٣٠ ، وبطريرك الإسكندرية أثناسيوس سنة ٣٣٥ . وتمكنوا من تنصيب زعيمهم أوسابيوس أسقف نيقوميدية بطريركاً على القسطنطينية . ويقول الأب بطرس ضو إن الآريوسيين عملوا لنشر مذهبهم «في أنحاء الشرق» (٥٣) . لكنّ الضغط الإمبراطوري من أجل وحدة العقيدة جعلهم يتراجعون خطوة ، فعقدوا مجمعاً في إنطاكية سنة ٣٤١ ، ووضعوا دستوراً للإيمان شبيهاً بدستور نيقية ،

---

(٥٢) «تاريخ الموارنة» ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٣ .

(٥٣) «تاريخ الموارنة» ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

حذفوا منه عبارة «مساوٍ للأب في الجوهر» . فأقرّوا ألوهة الإبن لكنهم جعلوها أدنى مرتبة من ألوهة الأب . وجاء في قاموس لاروس الموسوعي الكبير (٥٤) أن قسطنطين استند في الوقت المناسب إلى الحزب الأقوى ، دون أن يلقي بالاً لآرائه الدينية . وأكد القاموس المذكور في المادة نفسها أن قسطنطين كان نسيج وحده في التوفيق ، ولا يمكن القول إنه اهتدى إلى المسيحية ، والأرجح أنه لم يعتنق هذا الدين إلا في آخر عمره بفعل تأثيرات مختلفة ، منها تعاظم حزب المسيحيين من حوله، وإلحاح أوسابيوس البطريرك الآريوسي في تعميده على الإيمان الآريوسي ، على فراش موته سنة ٣٣٧ . ويؤثر عنه أنه لم يمتنع عن التدخل في أعمال المجامع ، مثل مجمع أنقره سنة ٣١٤ ، ومجمع نيقية الذي أنف ذكره .

ونجد في مجلد آخر من «قاموس لاروس الموسوعي الكبير» (٥٥) أن قسطنطين «انتظر الساعة المناسبة» ليتدخّل . وأن منشأ العقيدة الآريوسية مشرقي ، أصله في أقوال للمؤسس المسيحي الشهير المصري أوريجينوس الذي مات شهيداً في صور نحو سنة ٢٥٠ للميلاد ، والذي ألمح إلى أن

---

(٥٤) «Grand Larousse Encyclopédique», Paris , 1960, t. 3.p.421.

(٥٥) «Grand Larousse Encyclopédique» t. 1er , p. 567 .

الابن خاضع للأب . وفي المادة نفسها أن النزاع حول عقيدة آريوس «أشعل النار في الشرق كله» ، وأنه «تحوّل إلى نزاع سياسي ، اشتدت فيه النزعات الإمبراطورية إلى السيطرة البابوية على الكنيسة» . ويعرب غيبون عن ارتياحه لأن «سكان الولايات الغربية [في الإمبراطورية الرومانية] كانوا لحسن حظهم قد استقوا دينهم من مصدر صحيح . . . تحت الرعاية الأبوية التي أظلّهم بها بابا رومة» (٥٦) . ويروي غيبون واقعات المجمعين الغربي في ريميني سنة ٣٥٩، وحضره أربعمائة أسقف منهم ثمانون آريوسيا فقط ، لم يفصحوا عن مواقفهم صراحة ، والشرقي في سلوقية في السنة ذاتها ، وحضره مائة وخمسون أسقفاً أيدوا العقيدة الآريوسية ما عدا ثمانية عشر أسقفاً منهم (٥٧) . وكانت مجامع عديدة قد عقدت للأساقفة الآريوسيين الشرقيين في قيصرية وفي صور ، لم تَخْلُ وقائعها من عنفٍ وقتل (٥٨) . ويؤكد غيبون أن مجمع سارديكة (صوفية) سنة ٣٤٧ ، أظهر أعراض التنافر والانشقاق بين الكنائس الشرقية التي انحازت إلى عقيدة

---

(٥٦) غيبون ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٦٢٣ ، ٦٢٤ .

(٥٧) «تاريخ الموارنة» ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٧ .

(٥٨) «تاريخ الموارنة» المرجع نفسه ، المجلد الأول ، ص ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ .

آريوس ، والكنائس اللاتينية الغربية في إيطالية وغالية وإسبانية في العموم [٥٩] . بل ان إمبراطور الغرب قونسطانس أنذر بشن الحرب على أخيه إمبراطور الشرق قسطنطيوس . وأدى هذا الإنذار إلى إعادة الأساقفة المعادين لآريوس إلى مناصبهم في الإسكندرية على الخصوص . ومضت الحرب العقائدية في مد وجزر ، وبدا واضحاً من وقائعها أن الصراع تحول إلى حرب سياسية بين الشرق والغرب بلا ريب .

بداية انتصار الغرب

غير أن الخلاف دبّ في صفوف الآريوسيين في سنة ٣٥٧ ، وأخذت مواقعهم السياسية والعقائدية تتراجع أمام تماسك الموقف الغربي وضغطه المستمر . وبدأ الخلاف حينما أخذ بعض الآريوسيين يدعو إلى رفض «التساوي في الجوهر» بين الأب والابن ، والقبول «بالتشابه في الجوهر» بينهما ، فيما رفض آخرون التساوي والتشابه كليهما . حتى إذا ما عُقد مجمع القسطنطينية المسكوني سنة ٣٨١ ، كانت الكاثوليكية قد أحرزت انتصارات كثيرة بعد مجازر ومقاتل ترويها التواريخ الكنسية . وفي هذا المجمع قال بطريرك القسطنطينية

---

(٥٩) «غيبون» ، المرجع نفسه ، المجلد الأول ، ص ٦٤٢ ، ٦٤٣ .

النيقياوي مقالته الشهيرة : «إذا كان السيد لـه المجد ولـد في الشـرق ، فإنـه صُلب فيه أيضـاً» [٦٠] . وانتهى المجمـع ، بـإيعـاز من الإمبـراطـور تيـودوسيـوس الكبـير ، إلى تحـريم الآريـوسيـة، ووقّـع الأساقفـة الشـرقيـون أخيـراً[٦١] عـلى دستور الإيمان الذي صاغه بابا رومة داماسيوس سنة ٣٧٧. وحُرّمت المجامـع على مخـالفي هذا الإيمـان ، وأُمروا بتسليم كنائسهم إلى أصحاب العقيدة النيقياوية .

والحرب على آريـوس في الحقيقة نمـوذج للأسلوب الـذي اعتمده الغرب في استيعابه المسيحية الشرقيـة ، بعدمـا تعذّر القضـاء عليهـا ، حتى قـال الأب البـروتستـانتي الكسنـدر هِسلوب في كتـابه الخـطير : «البـابـلان» [٦٢] إن المعتقـدات الكـاثوليكيـة اليوم إن هي إلا نسخـة منقحة عن المعتقـدات الدينية القديمة في الدولة البابلية . وعـلى الرغم من ضـرورة التحفظ حيال موقف الكنائس الأنجلو ـ ساكسونية حيال رومة البابوية ، إلا أن هسلوب أسند كتابه إسناداً أكاديميـاً مقنعاً ، وأظهر الكثير من الشواهد على أصل مبدأ التثليث ، والعقائد

---

(٦٠) «تاريخ الموازنة» ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٠ .

(٦١) «Grand Larousse Encyclopédique» op. cit., t. 1er , p. 567 .

(٦٢) Alexander Hislop : «The Two Babylons» , Loizeaux Brothers , Neptune , New Jersy , first edited 1916 .

الأخرى التي فرضتها المذاهب الغربية على المسيحية في العموم ، مثل العذراء والطفل ، والميلاد ، والاعتماد ومشحة الموتى ، والزيّاحات والحبريّة العظمى والرهبنة وما إليها . ولا يتردد ديلاسي أوليري (٦٣) في القول إن المسيحية أعيدت صياغتُها «صياغة دائبة ، حتى بدت المسيحية هلّينيّة في جوهرها ، ولكن مع تعديل العناصر التي فيها من فلسفة أفلاطون ، بفعل المؤثرات الروحية للأفلاطونية المحدثة» . وعلى رغم أن توفيق فهد يعتقد أن التثليث هو نتيجة لانتصار بعل الابن الشهيد ، في معتقدات الساميين (٦٤) ، فإن الغرب هو الذي فرض هذا المبدأ في المسيحية على الشرق الموحِّد .

ولا يتردد غيبون ، وهو من هو في الكاثوليكية على ما أسلفنا ، في ملاحظة الأثر الوثني الكبير الذي أدخله الغربيون في المسيحية ، إذ يقول (٦٥) : «عندما انحدرت أهداف الدين شيئاً فشيئاً إلى مستوى تصور الناس وخيالهم أُدخلت في العبادة تلك الشعائر والطقوس التي رُؤي أنها تؤثر أعظم التأثير في حواسّ الدهماء والعامة . ولو أتيح لراعي الكنيسة

---

(٦٣) «الفكر العربي ومكانه في التاريخ» ، المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٦٤) Toufic Fahd : «Le Panthéon ..» op.cit., pp.180, 181 .

(٦٥) غيبون ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

ترتوليانوس أو لاوكتانتيوس أن يُبعثا من الموت فجأة في أوائل القرن الخامس ليحضرا احتفالاً أقيم لقدّيس أو شهيد شعبي ، لنظرا بعين الدهشة والسخط إلى ذلك المشهد الدنس الذي حلّ محل العبادة الطاهرة الروحية التي كان يقيمها جمهور المصلين المسيحيين ، ولا بد أنه كان يزعجهما ، بمجرد فتح أبواب الكنيسة ، دخان البخور ، وعبير الزهور ، ولمعان المصابيح والشموع التي ينبعث منها في منتصف النهار ضوء متلألىء لا لزوم له ، ينال في نظرهما من قدسية المكان . فإذا ما اقتربا من سور المذبح ، شقّا طريقهما وسط جمهور منبطح على الأرض ، يتألف أكثره من غرباء وحجاج جاؤوا إلى المدينة في عشية العيد ، وبدأوا يحسون نشوة الحماس الديني ، وربما نشوة الخمر . وكانوا يطبعون قبلاتهم الورعة على أسوار الهيكل المقدس وأرضه ، ويتجهون بصلواتهم مهما كانت لغة كنيستهم ، إلى عظام القدّيس أو إلى دمه ، أو إلى بقاياه التي جرت العادة على إخفائها عن عيون الدهماء ، وراء نقاب من الحرير أو التيل . . . وكانت الجدران مليئة بما يعلق عليها من رموز ترمز إلى ما حصلوا عليه من أفضال . فكنت ترى العيون والأيدي والأقدام المصنوعة من الذهب والفضة . وكنت ترى صوراً دينية لم تستطع الحفاظ على رونقها طويلاً من جرّاء ما نالها من التعبّد الوثني الطائش ، وهي روح تمثل

شخص القديس الولي ، وسجاياه ومعجـزاته . ولا شـك في أن هذه الروح نفسها ، روح الخرافة المتأصلة قـد أوحت في أقـدم العصور ، وفي أبعـد البلاد ، بـالأساليب نفسهـا التي استخـدمت الآن لخـداع سـذاجـة النـاس ، وللتـأثـير في حواسهم . غير أنـه ينبغي علينا أن نعتـرف في صراحـة بأن قساوسة الكنيسة الكاثـوليكية قلّدوا الأنمـوذج المدنّس الـذي كانوا يتلهّفون على تدميره . وبلغ الحال بأعظم الأساقفة أنهم أقنعوا أنفسهم بأن الدهماء الجهلاء ، سوف ينبذون في سرور خـرافات الـوثنيّة إذا مـا وجدوا في المسيحيـة مـا يشبـه تلك الخرافات، أو ما يعوّض منها. وهكذا ترى أن ديانة قسطنطين قـد حققت ، في أقل من قـرن ، انتصاراً نهائيـاً كامـلاً عـلى الإمبراطورية الرومـانية [الـوثنية] ، غـير أن الغزاة أنفسهم خضعوا ، دون أن يحسّوا ، إلى فنون منافسيهم المقهورين» .

إن غيبون ، الكاثوليكي ، يصف في هذا الفصل الـدقيق كيف طُوّعت المسيحية ، لكنه لا يصف كيفَ طُوّع أصحابُ المسيحية الأولى ، العرب والسوريون والأقباط ، وكيف كان وقعُ هذا التطويع عليهم .

لكن فـاسيلييف (٦٦) المؤرخ الأرثوذكسي الشهـير يؤكد أن

(٦٦) Vasiliev , AA. : «Histoire de l'Empire Byzantin , 279, Fr. Stark , Rome . p. 388 .

البيزنطيين نظروا «إلى الإسلام على أنه نوع من أنواع الآريوسيّة، أو أنه مذهب من المذاهب النصرانية المنشقة عن الكنيسة الرسمية» . ولم يكن البيزنطيّون بعيدين عن الإصابة ، ذلك أنهم عهدوا في المسيحية العربية عنصرين مهمّين وجدوهما في الإسلام أيضاً : التوحيد ومقاتلة الغرب من أجل الاستقلال . ولم يكن البيزنطيون وحدهم يرون هذا الرأي ، فقد سلم أساقفة بلاد الشام المدن إلى المسلمين وتعاونت معهم القبائل العربية المتنصّرة (٦٧) ، في طرد البيزنطيين من بلاد الشام .

حتى ذهب الدكتور إدمون رباط إلى القول (٦٨) إنه «لا مبالغة في الظن ، أنه لولا تأليه السيد المسيح ، في العقيدة التي صاغها فلاسفة اللاهوت اليونان ، لأمكن حرمان الإسلام واحداً من أسباب ظهوره» .

لكن رسالة الإسلام ، بين أمور عديدة لا نحصيها هنا ، تضمنت أيضاً تحرير العرب والساميين من حكم الدولتين العظميين : بيزنطية في الغرب ، والساسانيين في الشرق . وكان لا بدّ من أن تنجح عقيدة التوحيد في استنفار ميراثهم

---

(٦٧) Diehl and G. Marçais : Le monde Oriental , Paris , 1936, p. 104.

(٦٨) «L'Orient Chrétien ᴵᴵ» op. cit., p. 197 .

الحضـاري الهائـل الذي ظـل يحاول التعبـير عن نفسـه ، في ثورات دينية وسياسية كان للمسيحية فيها سهم عظيم ، فُرّغ من قدرته على الاستنفار حين تخلّى تدريجاً عن مبـدأ التوحيـد ومقاتلة السلطان الأجنبي .

الفصل الرابع

نهوض مصر وسورية وغسّان

«وكان مما حُفظ من وصية أردشير لابنه سابور عند نصبه إياه للملك ، أن قال له : يا بني ، إن الدين والملك أخوان ، ولا غنى لواحد منهما عن صاحبه» (٦٩) .

كانت الحدود بين الدولتين العظميين ، دولة الساسانيين الفرس في الشرق ، ودولة بيزنطية في الغرب ، تمر غالباً في خط يتفق مع نهر الفرات . لكن هذه الوصية التي قالها ملك الفرس لابنه وولي عهده ، كانت متّبعةً على جانبي نهر الفرات .

وجاء في الدستور الروماني منذ مرسوم ميلانو (٣١٣ م) أن رعاية الدين حقّ لكل حاكم مدني وواجب عليه سواء

---

(٦٩) أبو الحسن المسعودي : «مروج الذهب» ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة - ١٩٦٤ ، المجلد الأول ص ٢٤٨ .

بسـواء . ولم يستطع قسـطنطين وخلفـاؤه أن يقنعـوا أنفسهم بسهـولـة أنهم فقدوا بتحـولهم إلى المسيحيـة ، أي لـون من الامتيازات أو الحقوق الإمبراطورية ، أو أنهم عاجـزون عن سنّ القوانين للديانة التي بسطوا عليها حمايتهم واعتنقوهـا . فـظلّ الإمبراطـور ، الذي كـان يسمّى الحبـر الأعـظم ، في الوثنية ، يمـارس ولايته العليـا على النـظام الكنسي . ووضع تيـودوسيوس في الكتـاب السادس عشر من مجمـوعة قـوانينه مبـادىء السلطة التي اتّخـذهـا الأبـاطـرة لأنفسهم في حكم الكنيسة الكاثوليكية (٧٠) .

وفكرة إخضاع الإمبـراطوريـة لقانـون ديني موحـد ينسبها البعض إلى الإمبـراطور يـوستنيان الـذي أراد «دولـة واحـدة وقانوناً واحداً وكنيسة واحدة» ، إذ كان يرى أن الدولة المنظمة هي تلك التي يخضـع فيها كـل مـواطن لأمـر القيصر ، وأن الكنيسة سلاح ماضٍ يعين الحكومة على بلوغ أغراضها . لذا سعى إلى وضعها تحت نفوذ الحكومة ، فاستدعى رجال الدين من مختلف الملل والمـذاهب وحـاول أن يـدفعهم إلى تـوحيـد إيمانهم ، فلما أخفق اضطهد أصحابَ المـذاهب المعارِضـة ، وتقـرب من بابـا رومة وأيّـده ، واختلف وإيـاه عـلى السلطة

---

(٧٠) غيبون ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٥٩١ .

الـدينية ، لأنـه كان يـرى التـدخّـل في الشـأن الـديني حقـاً له [٧١] .

ويحلّل تريمنغهام في هذا الشأن ، فيقول إن العقيدة الجديدة كان من شأنها أن تبدّل الأفراد والمجتمع ، لو اعتُمـدَت على حالها ، عقيدة ثورية . «إلا أن المجتمع البيزنطي عطّل قدرة المسيحيـة على التغيـير ، حين اعتنقهـا ثم أخضعهـا لسلطان الدولة» . وما يسميه أوسابيوس : إنشاء «مملكة الله الجـديدة في الأرض» ، إنما ينم عن فقدان الكنيسة قدرتها على تبـديل المجتمع بقوة الإنجيل . لقد تكيّف التنظيم المسيحي ، تحت سلطان بيزنطية ، بالمجتمـع الذي سيّـرته شـرائعه الـداخلية الخاصة . والكنيسة التي كرست القيصر ، أضحت مؤسسة في الدولة [٧٢] .

ويـرى تريمنغهـام أن الذين رفضـوا هذا الأمـر هم الذين أنشأوا في مصر أولاً ، ثم في سوريـة ، نظام الـرهبنة . لكن هـذا الصنف من رافضي التطويـع البيزنـطي للمسيحية ، لم يكن الصنف الوحيد . ذلك أن أعداء بيزنطية هم الآخرون كانوا يؤمنون مثل أردشير ، «أن الدين والملك أخوان» . فبعد

---

(٧١) «المفصّل . .» المرجع السابق ، المجلد الرابع ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٧٢) «Christianity Among ...» op. cit., p. 100, 101

انتصار الغرب في الصراع مع المذهب الآريوسي ، اتفقت جميع المذاهب المسيحية ، الشرقي منها والغربي ، على اعتماد الدستور النيقياوي في شأن لاهوت المسيح . ومع هذا فإن النزاع لم ينته ، بل ازداد احتداما . وبدأ في القرن الخامس قتال شديد استمر قرنين ونيّف ، ولم ينته إلا بظهور الإسلام على البلاد . وليس من تفسير منطقي لظهور خلافات جديدة كلما حُسمت الخلافات القديمة ، سوى تناقض البيئتين الغربية والشرقية ، وبحث المنطقة العربية عن ذاتها واستقلالها السياسي والحضاري والثقافي . ولقد لاحظ يوحنا الإفسسي ذلك الأمر حين قال (٧٣) : «إن معتقداتهم ممتازة ، غير أنهم يتجنّبون الكنيسة [الرسمية] ويرفضون الاتصال بنا» .

النساطرة يذهبون شرقاً

وإذا كان الرهبان قد هربوا من اغتماس الكنيسة الرسمية في شؤون الدنيا ، إلى أديرة أقاموها على مشارف الصحارى العربية في مصر وسيناء وسورية وشمال الجزيرة العربية ، فإن فريقاً آخر من المسيحيين السريان ، اجتاز الحدود شرقاً إلى ما بين النهرين ومملكة الحيرة العربية والإمبراطورية الفارسية .

---

(٧٣) «Histoire Ecclésiastique». III. 12; éd. E. W. Brooks, p.101 .

هؤلاء أيضاً سمّوا أنفسهم «أرثوذكس» ، لأنهم نسبوا إلى أنفسهم أيضاً أنهم على المذهب المستقيم . لكن أعداءهم سموهم «النساطرة» على اسم نسطور بطريرك القسطنطينية الذي أسس مذهبهم . وهم يُعرفون اليوم باسم الأشوريين . وكان نسطور إنطاكياً ، سانده أحبار إنطاكية في مقولته إن «مريم العذراء أم للمسيح الإنسان وليست أماً لله» . وعلى الرغم من قبول النساطرة لاهوت المسيح ، فإن في مقولتهم هذه رفضاً مبطناً لتأليه الإنسان ، وإصراراً خفياً على فصل المخلوق عن الخالق فصلاً باتاً . ولم يكن غريباً أن يشتبه الرأي العام في القسطنطينية في أن تعاليم نسطور إنما استوحيت من تعاليم بولس السميساطي وفوطينوس ، القائلة بأن المسيح بشر وحسب (٧٤) . ونظمت الكنيسة البيزنطية الرسمية والدولة من ورائها حملة اضطهاد جائحة على النساطرة ، في إنطاكية وسورية على العموم ، حتى اضطر النساطرة إلى اجتياز الفرات (٧٥) ، فأقاموا كنيسة مزدهرة لهم فيها بين النهرين ، وقضت بيزنطية في عنف على وجودهم في نطاق سلطانها (٧٦) . ويقول أوليري إن «أول ما

---

(٧٤) ديلاسي أوليري : «علوم اليونان . .» ، المرجع السابق ص ٢٥٣ .

(٧٥) ديلاسي أوليري : «الفكر العربي . .» ، المرجع السابق ص ٤٨ و٤٩ .

(٧٦) ديلاسي أوليري : «علوم اليونان . .» ، المرجع السابق ص ٥٦ و٥٧ .

ظهر من الآداب المسيحية بلغة خاصة [غير اليونانية] جاء باللغة السريانية في لهجة الرُها . وهي آداب متقدمة زمناً طويلاً على أي أدب مسيحي كتب باللاتينية» . وقد أقفل الإمبراطور زينون سنة ٤٣٩ للميلاد مدرسة الرُها السريانية العريقة ، فلجأ أعضاؤها المطرودون إلى فيروز ملك الفرس آنذاك ، وأقنعوه بأن الكنيسة النسطورية تكره الإمبراطورية البيزنطية كراهة تامة ، لما أصابها من عنتها . ولذا استُقبل النساطرةُ استقبالاً ودياً ، وفتحوا مدرسة نصّيبين التي تحوّلت إلى بؤرة للفكر المسيحي الشرقي ، ومنها انتشر المبشرون في أواسط آسية وفي بلاد العرب (٧٧) حتى أضحت مملكة الحيرة العربية مقراً لهذا المذهب الذي قيل إن النعمان اعتنقه . وكان النساطرة حريصين على اطّراح اللغة الإغريقية ، وإنشاء ثقافة سريانية وطنية مزدهرة ، يرى أوليري أن خطرها الحق هو في أنها مهّدت للإسلام الذي جعل اللغة العربية وسيلة عالمية لتبادل الفكر ، بدلاً من اليونانية .

ولعل أعظم أمثولة في تجربة الكنيسة النسطورية هي أنها تُركت تزدهر حالما زالت أسباب شك الفرس وريبتهم في اتصالها أو تحالفها مع بيزنطية . وكان متوقعاً أن

(٧٧) ديلاسي أوليري : «الفكر العربي . .» ، المرجع السابق ص ٥٠ و٥١ .

تسعى دولة الساسانيين إلى دفع النساطرة بعيداً عن بيزنطية ، وتشجيعهم على الانشقاق . لكن هؤلاء في المقابل لم يكونوا في حاجة إلى كثير من التشجيع في هذا ، لأن خلافهم مع بيزنطية ، ضمن لهم حماية الدولة الساسانية ، وكثيراً من سعة التحرك ، لأن الدولة الساسانية لم يكن لديها مذهب خاص في شأن طبيعة السيّد المسيح ، بل كان يهمها الاطمئنان إلى أن النساطرة لن يشكلوا طابوراً بيزنطياً في داخل أرضها . وقد ظلت دولة الساسانيين مرتابة باليعاقبة ، أعداء النساطرة المذهبيين ، حتى تبيّن تماماً أن هؤلاء اليعاقبة أضحوا هم أيضاً أعداءً لبيزنطية ، فتبدل موقف الساسانيين منهم .

تغريب الواجهة . . فقط

لكن الذين حلّوا مشكلتهم مع بيزنطية بالذهاب إلى الأديرة ، أو بالذهاب شرقاً إلى الفرس ، لم يحلّوا في الواقع مشكلة من بقي من السوريين والمصريين تحت نير بيزنطية. ففي سورية الطبيعية، كان ثمة ثلاثة أصناف من الناس: الإغريق ، وكانوا يعتنقون الثقافة اليونانية ويقطنون المدن الكبرى ؛ والعرب والنبط «المهلّنون» ، أي المثقفون ثقافة هلّينية يونانية ؛ أما الكثرة الكاثرة فمن النبط أو العرب

المتكلمين الآرامية أو العربية [٧٨] . وغالباً ما كان أثر الثقافة البيزنطية محصوراً جداً في المدن «اليونانية» في سورية ومصر ، مثل إنطاكية والإسكندرية . ويقول بينز [٧٩] ، إن هذه المدن كانت أشبه بالجزر وسط البحر الساميّ . ولما كان الشرق الأدنى يحكمه اليونانيون من مدينة القسطنطينية اليونانية ، كان لا بد لسكان الأرياف ، وقد اكتشفوا «ذاتهم المختلفة» ، أن يشكلوا لأباطرة رومة الشرقيين ، مشكلة لا حل لها» .

كانت الثقافة البيزنطية مؤسسة على المدينة ، التي تميز تماماً بين الحواضر والأرياف . ولذا كانت المدينة البيزنطية تختلف عن المدينة الآرامية المتصلة بالأرياف من حيث الروح الثقافية ، ومن حيث الوظيفة الاجتماعية والسياسية . ولم تكن المدينة البيزنطية سوى جسم مزروع في أرض لا جذور لها فيها . وكانت تفترض على «المتهلّنين» تبديلاً شاملاً في المسلك الفكري والاجتماعي . ولذا بقيت الثقافة البيزنطية قاصرة على طبقة محصورة ، وسلمت الأعماق الريفية في سورية ومصر من تأثيرها [٨٠] . (قارن بين التهلّن في الأمس

---

(٧٨) «Christianity Among ..» op. cit., p. 212.

(٧٩) N. H. Baynes : «Byzantine Studies and Other Essays» . London , 1955 .

(٨٠) «Christianity Among ..» , op. cit., p. 22.

والتغرّب اليوم) . وكانت دمشق ، عاصمة سورية الرسمية ، مدينة نصف يونانية ، لم تتشرب الثقافة اليونانية تماماً مثل إنطاكية . وكانت فيها مدرسة لاهوتية حافظت على سمعة طيبة حتى بعد الفتح الإسلامي . (٨١) . أمّا داخل سورية فلم يكن مشبعاً بالثقافة اليونانية أبداً . ويقول شفارتس في محاضر المجامع المسكونية إن الأساقفة حتى ، كانوا يستعينون المترجمين ، في مناقشات المجامع التي كانت تدور باليونانية . وفي أحد التماسات أساقفة الرُها لدى مجمع خلقيدونية ، ظهر ما يزيد على ثلث الإمضاءات باللغة السريانية (٨٢) .

وقد ينزلق المرء إلى رواية تفاصيل الخلافات اللاهوتية ، التي نشبت بين سورية ومصر من جانب وبيزنطية وروما من جانب آخر ، حول طبيعة السيد المسيح ، فأشعلت حرب القرنين التي استمرت حتى الفتح الإسلامي . لكن هذه الخلافات لم تكن سبب الحرب ، قدر ما كانت تعبيراً عقائدياً لتنافر البيئتين الغربية والشرقية . ولقد استطاعت الكنيسة المشرقية بزعامة اليعاقبة ، أن تقود نضالاً حقيقياً ضد النفوذ البيزنطي ، لا لأن السوريين والمصريين آمنوا بأن للمسيح

---

(٨١) ديلاسي أوليري : «علوم اليونان . .» ، المرجع السابق ، ص ١٩١ .
(٨٢) ديلاسي أوليري : «علوم اليونان . . .» ، نفسه ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

طبيعة واحدة ، فخالفهم الغربيون وحسب ، بل لأن المشارقة كانوا يبحثون عن قطب يجمعهم في نضال يعبّر عن رغبتهم في نبذ ما كانت بيزنطية تحاول ترسيخه : الاحتلال .

ولذا اعتنق اليونان ، والعرب والنبط المنحازون إلى ثقافة اليونان ، في كل من سورية ومصر ، عقيدة مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١) ، فيما انحاز معظم الباقين إلى المذهب اليعقوبي القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة ، هي الطبيعة الإلهية (٨٣) .

الكثرة يعاقبة

في مصر مثلاً كان تعداد أنصار خلقيدونية المتجمعين في الإسكندرية على الخصوص ، نحواً من مائتي ألف ، فيما تعداد اليعاقبة الأقباط بلغ ستة ملايين (٨٤) . أما في سورية ، فيقول تريمنغهام ، إن يعقوب البرادعي ، مؤسس إكليروس اليعاقبة ، وقد أُطلق اسمه عليهم ، كان يسافر في البلاد متخفياً ، خوفاً من بطش الدولة البيزنطية ؛ «إلا أن أحداً من السكان لم يَشِ به يوماً» (٨٥) . وفي فلسطين ثار معظم

(٨٣) «Christianity Among..» op. cit., p.212.

(٨٤) ألفرد بتلر : «فتح العرب لمصر» ، تعريب محمد فريد أبو حديد بك ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

(٨٥) «Christianity Among ..» op. cit., p. 167 .

الرهبان على قرار خلقيدونية . وفي أحد أديرة القدس تمرد راهب اسمه رومانوس على رئيسه الذي اعتنق مبدأ خلقيدونية ، فأسس الراهب المتمرد ديراً على حدة سنة ٤٥٤ ، سرعان ما ضم ستمائة راهب . وقد هدمت سلطات الكنيسة الرسمية هذا الدير سنة ٤٨٤ (٨٦) .

أما في بُصرى حاضرة العرب ومدينة الغساسنة الكبرى آنذاك فأُجبر يوليان رئيس أساقفة المدينة على مغادرتها ، لأنه رفض دَيْن قرار خلقيدونية «وخشي غضب الشعب» (٨٧) ، وحل محله قسيان الذي أجبرته الدولة على التنحي عندما مات الإمبراطور أناستاسيوس (سنة ٥١٨ م) ، وخلفه يوستينوس ، الذي تشدد في اضطهاد أنصار الطبيعة الواحدة . وأخذت تنتشر ظواهر الخروج على الكنيسة الرسمية ورفض خدمات القداس لدى الكهنة الخلقيدونيين (٨٨) . بل إن تظاهرات صاخبة ودموية قامت في فلسطين سخطاً على قرارات خلقيدونية (٨٩) .

---

(٨٦) «Christianity Among ..» ibid., p.113.

(٨٧) «Christianity Among ..» , ibid , pp. 77, 78.

(٨٨) ديلاسي أوليري : «علوم اليونان . .» ، المرجع نفسه ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٨٩) ديلاسي أوليري : «علوم اليونان . .» ، نفسه ، ص ١٠٠ .

ويشيع بين الناس اعتقاد أن الأرثوذوكس اليوم ، هم حفدة الغساسنة . لكن الحقيقة أن الغساسنة وأمراءهم كانوا يعاقبة منذ بداية ولايتهم على عرب سورية الطبيعية تقريباً . ذلك أن الحارث بن جبلة ، أول من عُين منهم ملكاً وبطريكاً ، لم يكن يعقوبياً وحسب (٩٠) ، بل إنه زار البلاط الإمبراطوري سنة ٥٤٣ وطلب من الإمبراطورة ثيودورا أن تنصر اليعاقبة ، وكانت تميل إليهم ، فأوعزت إلى ثيودوسيوس بطريرك الإسكندرية ، فرسم أسقفين أحدهما ثيودور (على بُصرى) والثاني يعقوب البرادعي (على الرُها) . وكان منصبه هذا إسمياً فقط ، لأنه حُظّر عليه المكوث في الرُّها . لكنه امتلك الرتبة الكهنوتية التي مكّنته من رسامة الكهنة ، وتشكيل الإكليروس اليعقوبي الذي حمل اسمه (٩١) . أما المنذر بن الحارث الغسّاني فكان مثل والده من القائلين بمذهب الطبيعة الواحدة . وقد بنى صهاريج لإيصال الماء إلى الرصافة مدينة القديس سركيس ، الذي كانت مكانته عظيمة لدى نصارى العرب في سورية . وبنى كذلك كنيسة هناك (٩٢)

---

(٩٠) أحمد أمين : «فجر الإسلام» ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٩١) ديلاسي أوليري : «علوم اليونان . .»، المرجع السابق ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٩٢) «المفصّل . .» ، المرجع نفسه ، المجلد الثالث ، ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

ويذكر د. جواد علي [٩٣] أن الإمبراطور موريقوس طلب في أواخر القرن السادس من النعمان بن المنذر الغسّاني ، أن يدخل في المذهب الخلقيدوني ، فأجابه أن جميع القبائل العربية هي على المذهب الحنيف [اليعقوبي] ، وأنه إذا بدّل مذهبه فلا يأمن على نفسه من القتل . فقبض عليه ونفي مع والده في جزيرة صقلية . وفي المراسلات التي تلقّاها يعقوب البرادعي زعيم الإكليروس اليعقوبي رسالة وقّع عليها رؤساء مائة وسبعة وثلاثين ديراً في المقاطعة العربية ، يردّون فيها على رأي يوحنا النحوي في التثليث ، بين سنة ٥٧٠ وسنة ٥٧٨ للميلاد [٩٤] .

ولقد بلغ من انتشار مبدأ الطبيعة الواحدة في المشرق العربي ، ما جعل تريمنغهام يؤكد أن الآراميين عموماً كانوا معادين لخلقيدونية ، وأن الرهبان الذين اعتمدوا قرارات المجمع المذكور لم يستطيعوا المكوث في مصر . ويروى قصة اثنين واحد عربي اسمه إلياس والآخر قبدوقي اسمه مارتيريوس ، هربا إلى فلسطين وأصبحا بطريركين على القدس : مارتيريوس سنة ٤٩٤ ، والياس سنة ٤٧٨ حتى

---

(٩٣) «المفصّل . . » ، المرجع نفسه ، ص ٤١٧ .

(٩٤) «المفصّل . . » ، المرجع نفسه ، المجلد السادس ص ٦٢٦ .

سنة ٤٨٨ . وكان متّبعو خط خلقيدونية مناقضين لمشاعر الفلسطينيين (٩٥) ومنهم جوفينال الذي كوفىء لانضمامه إلى الخلقيدونيين برفع مرتبة أبرشيته إلى البطريركية ، فثار عليه رهبانه واتهموه بالخيانة .

القلة في مواجهة الثورة

لقد أسهب بتلر في وصف الثورة الخطيرة التي استبدت بمصر ، فأفرد لها فصلاً عنوانه : «الاضطهاد الأعظم للقبط» (٩٦) روى فيه بعضاً من وقائع الاضطهاد البيزنطي لمسيحيي مصر قبيل الفتح العربي ، لأن كتابه مخصص بالفتح ، لا بالفترة البيزنطية . وأما الدكتور إدمون رباط فوصف نهوض سورية اليعقوبية في وجه بيزنطية بأنه «قومية دينية» (٩٧) . ولا شك في أن المذاهب الخلقيدونية التي ظهرت بفعل هذا الصراع في الديار العربية فيما بعد (ومنها الكنيسة المارونية والكنيسة الأرثوذوكسية) لم تكن قد انتظمت في طوائف منفصلة في ذلك الوقت . لقد مات القديس مارون في وقت ما بين سنتي ٤٠٥ و٤١٠ للميلاد ، وأغلب الظن أنه لم

---

(٩٥) «Christianity Among ..» , op cit, pp. 111, 112, 113.

(٩٦) «فتح العرب لمصر» ، المرجع السابق ، ص ١١٥ إلى ١٢٥ .

(٩٧) «L'Orient Chrétien ..» op. cit., p. 58.

يغتمس في الصراع الذي اشتد بعد موته ، على نحو ينبىء بوجهة الكنيسة التي ستؤسس على اسمه . ولا شك في أن المنتمين إلى الكنيستين المذكورتين ليسوا جميعاً أنصاراً للسيطرة الغربية على ديارنا قطعاً ، ولا المنتمون إلى الكنائس أو الديانات الأخرى جميعاً أنقياء أتقياء بلا استثناء . ذلك تصنيف طائفي لا نقرّه ولا يقرّه الواقع . لكن هذا لا يبدّل التاريخ في شيء ، ولا يبرىء الغرب الروماني والبيزنطي من التبعات التي يتحملها حيال ذبح المسيحيين اليعاقبة ، بل حيال ذبح المسيحيين «الموارنة» ، الذين دفعهم إلى الواجهة لأغراض سياسية ، فدفعوا ثمن أطماع الآخرين .

لقد عاش القديس مارون عمره زاهداً في جبال «القورشية» في إقليم إسكندرونة في شمال غرب سورية الطبيعية ، وكان واحداً من أهم النسّاك الذين زخر بهم ذلك العصر في سورية والبوادي العربية . وكان القديس سمعان العمودي واحداً من هؤلاء النسّاك الذين كانت تحتشد من حولهم القبائل العربية وتتخذ منهم مبادىء المسيحية . فلما مات القديس مارون وتقاتلت القبائل العربية على جثمانه ، إجلالاً وإعزازاً له ، لم يكن أحد يعلم أن بيزنطية كانت تستعد لاستغلال هذا الإجلال استغلالاً سياسيا . ويقول الأب بطرس ضو إن الإمبراطور مرقيانس هو الذي بنى دير

مـارون في أفاميـة ، في جوار حمـاة الحـديثـة ، سنـة ٤٥١ ، لغـايتين «خـارجية وداخليـة» . ويضيف الأب ضو (٩٨) «إن الغـاية الخـارجية كـانت تبشير العـرب بدو صحـراء سوريـة وسكانها ، وإدماجهم في المجتمع المسيحي والمملكة والحضارة المسيحية . والغاية الداخلية كانت إنشاء مركز لقيادة سـريان سـوريـة التـابعـين للمجمـع الخلقيـدوني كي لا ينحـاز كـل السريان ، وهم الشـطر الأكبر من سكـان سوريـة إلى بدعـة الطبيعة الواحدة ضد العقيدة الخلقيدونية التي أصبحت منـذ المجمـع الخلقيـدوني العقيـدة الـرسميـة في المملكـة» [البيزنطيـة] . وعمر أسـوار الديـر الإمبراطـور يوستنيـانس بعدما شُيّد بنحو مائة سنـة (٩٩) . ويقول الأب ضـو معتزاً : «ما إن برز الصراع بين المونوفيزيين [أنصار الطبيعة الواحدة اليعاقبة] والخلقيدونيين ، حتى انبرى دير مارون بشدة وقـوّة يـدافع عن العقيـدة الخلقيـدونيـة» (١٠٠) . ونشر الأب ضـو رسالة «وجهها رهبان سورية الثانية إلى البابا هـورميزدا سنـة ٥١٧ يشكون إليه بها فظائع الاضطهاد الذي تعرّضوا لـه في تلك السنة من جانب ساويرس البطريرك الإنطاكي وأخصام

---

(٩٨) «تاريخ الموارنة» ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٢٢ .

(٩٩) «تاريخ الموارنة» ، المرجع نفسه ، المجلد الأول ، ص ١٩٨ .

(١٠٠) «تاريخ الموارنة» ، المرجع نفسه ، المجلد الثاني ، ص ٢٢ .

المجمع الخلقيدوني ، وذلك بسبب إخلاصهم للمجمع المذكور ودعوتهم له . ومن فصول هذا الاضطهاد قتل ثلاثمائة وخمسين راهباً خلقيدونياً . . . وقد وقّع عليها خمسة وعشرون رئيس دير ومائة واثنان وخمسون كاهناً ، وثلاثة وثلاثون شماسا . وأول من وقّع عليها رئيس دير مار مارون ، جاء إمضاؤه هكذا : إسكندر كاهن ورئيس دير الطوباوي مارون» [١٠١] .

وتروي التواريخ الكنسية الكثير من المجازر ، على الخصوص تلك التي ارتكبها البيزنطيون لتطويع اليعاقبة ، ومنها مجزرة في مصر ، يقال إن مائتي ألف قبطي قتلوا فيها . ويعدد بتلر بعضاً من هذه المجازر في كتابه قبيل الفتح العربي[١٠٢] ، وقد روى المؤرخ المصري المعروف طارق البشري ، صاحب كتاب «الأقباط والمسلمون»[١٠٣] ، في حديث عقد معه ، أن جميع شهداء الكنيسة القبطية ينتمون إلى الفترة البيزنطية . ولم يستشهد مسيحي واحد في مصر في العهد الإسلامي ، وذلك أمر يمكن قوله في تاريخ

---

(١٠١) «تاريخ الموارنة» ، المرجع نفسه ، المجلد الأول ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(١٠٢) «فتح العرب لمصر» ، المرجع السابق ، ص ٢٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٩ ، ٢٠٢ .

(١٠٣) دار الوحدة ، بيروت ، ١٩٨٢ .

المسيحيـة السوريـة ، إذ يقـول المؤرخ العـربي المسيحي أبـو الفـرج بن العبري ، وهـو يعقوبي : «أنجـانـا الله المنتقم من الروم على يد العرب فعظمت نعمته لدينا ، أن أخـرجنا من ظلم الروم وخلّصنا من كراهتهم الشديدة وعداوتهم المـرة . على أن كنائسنا لم ترجع إلينا ، لأن العرب أبقوا كل طائفة من المسيحيين ، على ما كان في يدها عند فتحهم للبلاد » (١٠٤) .

ولعل من المفيد جداً أن نقول إن الكنيسة المارونية لم تظهر في تنـظيم كنسي كهنوتي مستقـل إلا بعد الفتـح الإسلامي ، حين تجمعت جمهرة من الخلقيدونيين السوريين حول القديس يوحنا مـارون في أواخر القـرن السابـع للميلاد ، واختـاروه بطريركاً على إنطاكية . وبذا ظهرت البطريركيـة المارونيـة في ظل الدولة الأموية ، وتطورت بسلام وازدهرت بلا عائق ولا قسر ولا اضطهاد .

إن العبرة يا غبطة البطريرك واضحة للغاية .

---

(١٠٤) «فتح العرب لمصر» ، المرجع السابق ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

الفصل الخامس

الحجاز وتاريخ المسيحية

صاحب الغبطة ،

إن الفرصة مؤاتية للقول إن الدنيا قلّما تبدّلت . فالأغراض والمصالح لا تـزال على حـالها منـذ ألوف السنـين : السيطرة السياسية والعسكـرية والهيمنـة الاقتصاديـة . حتى الأساليب تكاد تكون على حالها : فالـدين من الوسـائل المعهـودة التي تستخدمها الدول في خدمة أغراضها ومصالحها . وإن تاريخ العرب وديارهم ، وعـلى الخصوص تـاريخ الجـزيرة العـربية والحجاز يظهر هذا الأمر بوضوح مذهل .

لقد صدف أن وقعت جزيرة العـرب في موقـع وسيط من العالم القديم . فمنها وعلى جانبيها تمر الطرق الكبرى للتجارة بـين الشرق والغـرب ، وبـين الشمـال والجنـوب . وكـانت السيطرة على البحر الأحمر ، أو على الخليج العـربي ، أو على طرق الصحراء ، محور الصراع بين الشـرق والغرب . وحتى

ظهـور الإسلام ، كـانت دولة الفـرس هي الدولـة الشرقيـة الكبـرى التي حاربهـا الغرب : الإسكنـدر ، ثم رومـة ، ثم بيـزنطيـة . ولم تتبدل المسـألة ، وإن تبـدلت الدول . وكـان غرض الصراع طوال ألف سنة قبـل الإسلام ، هـو السيطرة عـلى الطرق إلى الصـين ، من أجل الحصـول عـلى الحـريـر والعطور والتوابل على الخصوص ، فيما كـان غرض الفـرس على الدوام السيطرة على سورية ومصر من أجل ضمان إحكام السيـطرة على كـل المنافـذ الغربيـة إلى بحر العـرب (١٠٥) . ويؤكد فرانز كومون هذا الأمر (١٠٦) فيما يقول د. إدمون ربّاط إن السيـطرة على خـطوط التجارة العـربية كـان همّاً بيـزنطيـاً لضمـان تدفق المنتجـات الهنديـة إلى القسطنـطينيـة بـأسعـار بخسة (١٠٧) وكان مشروع الإسكندر هو السيطرة على المنافذ إلى الميـاه الـدافئـة لتجنيب مملكتـه دفـع مكـوس للتجـار ، بالالتفاف على جزيرة العرب (١٠٨) . ولقد حاربـه العرب في

---

(١٠٥) Maxime Rodinson : «Mohammad» ; Penguin Books , Suffolk , Great Britain , 1977 ,p. 26 .

(١٠٦) Franz Cumont : «Les religions orientales dans le paganisme romain» , 1929 , p. 125 .

(١٠٧) «L'Orient Chrétien » , op. cit., pp. 88, 89 .

(١٠٨) «المفصّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد السابع ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

صور ، وكانوا هم الذين يمدّون تجار فينيقية الكنعانيين بالسلع الهندية واليمنية والإفريقية . فلما مات الإسكندر حاول البطالسة الاستغناء عن تجار الجزيرة العربية ، فعززوا أسطولهم في البحر الأحمر (١٠٩) . وقد سجلت الآثار والمسكوكات التي عثر عليها بين سَلْع (التي كان يسميها الرومان بيترا) وغزة ، قيام تجارة قوافل نبطية بالعطور والأفاويه ، في القرن الثالث قبل الميلاد (١١٠) . وكانت طرقهم تسلك وادي سرحان إلى قلب جزيرة العرب . وقد أنفذ أغسطس قيصر سنة ٢٤ قبل الميلاد حملة إلى جنوب الجزيرة العربية ، قادها إيليوس غالوس ، وانتهت إلى فشل ذريع (١١١) ، وحاول قواده كذلك إخضاع الحبشة ليحكموا السيطرة على جانبي البحر الأحمر ، «لكن حرارة الجو ردت الغزاة على أعقابهم» (١١٢) . فلما مات أغسطس نصح لخلفائه في وصيته التي قرئت على السناتو ، أن تبقى الإمبراطورية ضمن حدودها «الطبيعية» ، وهي المحيط الأطلسي غرباً ،

---

(١٠٩) «Mohammad» , op. cit., P 34.

(١١٠) G. W. Bowersock : A Report on Arabia ... op. cit. pp. 221, 222.

(١١١) «L'Orient Chrétien ..» , op. cit , p.153 .

(١١٢) غيبون ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٦٦ .

والراين والدانوب شمالاً ، والفرات شرقاً ، وصحراء العرب وصحراء إفريقية جنوباً . وقد لزم خلفاء أغسطس نُصْحه ، حتى جاء تراجان (٩٨ م ـ ١١٧ م) فاستبدّت به أحلام الإسكندر من جديد ، واقتحم أرمينية ، ثم ساير دجلة حتى الخليج ، وحظي بشرف كونه أول قائد وآخر قائد روماني يمخر عباب هذا البحر السحيق (١١٣) . وهو الذي وقف على شاطىء الخليج ونظر إلى أفقه متحسراً ، لعجزه عما أمكن للإسكندر . غير أن تراجان استطاع أن يضم مملكة النبط إلى الممتلكات الرومانية سنة ١٠٦ للميلاد . ولم يكن هذا أبعد مكان أوغل فيه الرومان في الواقع صوب الجنوب . ففي السنة الأولى للميلاد يبدو أن حملة رومانية أخرى قادها غايوس قيصر ، وصلت إلى خليج العقبة (١١٤) . بل لا شك في أن ميناء عدن كان في يد الرومان أيام الإمبراطور كلوديوس (٤١ ـ ٥٤ م) (١١٥) . لكن هذا التوغل جنوباً كان عرضة لظروف لم تكن رومة قادرة على التحكم بها على الدوام ، فكانت مثابة بدائل تستنسبها القيادة الرومانية وفق ظروف الإبحار في البحر الأحمر ، أو وفق قدرة النبط على تنظيم حماية

(١١٣) غيبون ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٧١ .
(١١٤) «A Report on Arabia Provincia» , op. cit , p. 227 .
(١١٥) «المفصَّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد السابع ، ص ٢٧٧ .

القوافل [١١٦] . وقد أدى ضعف مملكة الأنباط العربية ، إلى اعتماد سياسة المسالح الحدودية لحماية طرق التجارة الآتية عبر جزيرة العرب ، في القرنين الثاني والثالث للميلاد [١١٧] ، فتعاظم دور بُصرى ، وأصلح تراجان القناة القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر ، ودعم الأسطول الروماني ، من أجل احتكار التجارة البحرية عبر البحر الأحمر على الخصوص [١١٨] . وساعده في هذا أن يونانياً يدعى هيبالوس ، اكتشف في مطلع العصر الميلادي ، انتظام الرياح الموسمية التي مكنت السفن من مغادرة موانىء مصر في بحر القُلْزُم (أي في خليج السويس) إلى الهند ، والعودة في الموسم نفسه ، فيما كانت طريق البر المارة بتدمر والرُّها وإنطاكية ، عرضةً للتقلبات السياسية [١١٩] . وارتأى دافيد غراف أن كتابة روّافة [١٢٠] تدلُّ على أن رومة عقدت عهداً مع اتحاد القبائل الثمودية بدأ في نحو العقد السابع من القرن الثاني

---

(١١٦) «The Saracens and the Defense ...» op. cit., pp. 6, 7.

(١١٧) «The Saracens and the Defense ..» , ibid , pp. 19, 20 .

(١١٨) «المفصَّل . . » ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٦٥ .

(١١٩) «Mohammad» ,ibid ,p.34 .

(١٢٠) «The Saracens and the Defense ..» , op. cit., p. 11

الميلادي ، واستمر حتى القرن الثالث . وهذا يعني أن نفوذ رومة امتدّ بشكل أو بآخر إلى شواطىء الجزيرة العربية الممتدة من يثرب إلى ميناء إيلة في أقصى جنوب فلسطين .

البخور أمس ، واليوم النفط

ذلك يفسر لنا يا غبطة البطريرك ، كثيراً مما يجري اليوم حول جزيرة العرب وعلى جانبيها ، من الحبشة إلى مصر والسودان ، وعدن والخليج ، والقواعد والمعاهدات والحروب وإنشاء إسرائيل والشد والجذب في المنطقة . ذلك كله كان يحدث مثله حالما تنتج البلاد الواقعة إلى الجنوب وإلى الشرق من البحر الأحمر ، سلعة مهمة للغاية يحتاج إليها القاطنون على الشواطىء الشمالية للبحر المتوسط . اليوم ، هو النفط ، أما في الأمس فإن البخور كان يساوي ما يساويه الذهب والنفط اليوم [١٢١] وكان الفلفل من أغلى العناصر المستخدمة في الطهي لدى الرومان ، وموطنه شاطىء مالابار في الهند [١٢٢] ، ولما حاصر ألاريك ملك القوط رومة في مطلع القرن الميلادي الخامس ، طلب من الرومان ليفك الحصار ،

---

(١٢١) «المفصَّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٦٦ .
(١٢٢) غيبون ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٢٠١ .

ذهباً وفضة . . . وثلاثة آلاف رطل فلفلا . وكانت السفن تبحر من مصر في أسطول ، في شهر حزيران فتدفعها الرياح الموسمية إلى الهند في أربعين يوماً ، ثم تعود في شهر كانون الأول ، أو كانون الثاني حاملة السلع الشرقية الفاخرة ، ومنها الحرير الصيني ، (وكان ثمن الرطل منه يساوي ثمن الرطل من الذهب) والحجارة الكريمة ، واللؤلؤ من الخليج (وكانت له المكانة الأولى بعد الماس) وأنواع من العطور والبخور تستخدم في المراسم الدينية والجنازات ، وثمنها لا يصدق (١٢٣) . وشكا الإمبراطور أوريليانس غلاء هذه السلع ، التي كان معظم سعرها يُدفع إلى التجار العرب لقاء مشاقهم الجمّة في البحار والصحارى ، أو إلى التجار الفرس ، حين كانت أحوال السلم تتيح نقل هذه السلع براً عبر سمرقند وبُخارَى حتى أرمينية ونصيبين ، وغيرهما من مدن تجارة القوافل البرية (١٢٤) .

وأمّا قُرَيْش فكانت أعظم تجارتها الفضة (١٢٥) ، ثم الأدم والزبيب والصمغ والطيب والبُرَد اليمانية والثياب العدنية

---

(١٢٣) غيبون ، المرجع نفسه ، المجلد الأول ، ص ١١٠ ، ١١١ .
(١٢٤) غيبون ، المرجع نفسه ، المجلد الثاني ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ .
(١٢٥) «المفصَّل . . » ، المرجع السابق ، المجلد الرابع ، ص ٢٢٤ .

ومصنوعات الحديد والمعادن الأخرى [١٢٦] .

«ولهذا فكّر يوستينيانس [إمبراطور بيزنطية] ، في التحرر من تحكم الساسانيين ، وذلك باستيراد بضائع من طريق البحر الأحمر» [١٢٧] فأمر بإقامة موظفي الجباية البيزنطيين في جزيرة يوتابه (أي تيران ، التي نشبت حرب ١٩٦٧ بين إسرائيل والعرب ، بعد تولّي الجيش المصري السيطرة عليها) وأمر كذلك بإرسال المبشرين إلى القبائل العربية وإلى اليمن [١٢٨] .

المسيحية في اليمن

والروايات التي تنبىء بدخول المسيحية اليمن مختلفة . أبكرها أن أحد الأساقفة ممن كانوا في اليمن ، اشترك في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ للميلاد[١٢٩] . وتروي التواريخ اليونانية أن الإمبراطور قسطنطين الثاني أرسل عام ٣٤٥ م . تيوفيلوس الهندي إلى اليمن للتبشير بالمسيحية ، فأنشأ كنيسة في عدن وأخرى في ظفار وثالثة في هُرْمُز . وقد حمّله

---

(١٢٦) «المفصَّل . .» المرجع نفسه ، المجلد السابع ، ص ٣٠٧ .
(١٢٧) «المفصَّل . .» المرجع نفسه ، المجلد الرابع ، ص ١٦٩ .
(١٢٨) «المفصَّل . .» ، المرجع نفسه ، المجلد الرابع ، ص ١٧١ .
(١٢٩) «المفصَّل . .» ، المرجع نفسه ، المجلد السادس ، ص ٦١٢ .

الإمبراطور رسائل إلى ملك حِمْيَر، ونجاشي الحبشة. ويظهر من هذه الرواية أن مهمة تيوفيلوس كانت سياسيّة (١٣٠).

وارتأى المستشرق روسّيني أن قسطنطين كان يقصد إلى عقد معاهدة تجارية مع الحِمْيَريين، ويحرضهم ليدخلوا في معسكره ضد الفرس. ويؤكد ولفنسون هذا الأمر إذ يقول: «كان نشر الديانة المسيحية عند ملوك الروم وسيلة لنشر استعمارهم وترسيخ أقدامهم في بلاد أعدائهم. وكان الروم يحسبون حساباً كبيراً للحبشة فهي على طريق تجار الهند، وعلى تخوم مصر... وكان ملوك حِمير قد تنبّهوا إلى هذه الأغراض فقاوموها مقاومة شديدة. أما في بلاد الحبشة فقد أثمر النبت الذي غرسه فرومنتيوس الثمر المرجو» (١٣١). وقال ديل: «إن التبشير كان يرافق الغزو خطوة خطوة، وكان المبشر معين الجندي والسياسي معاً، وفيها كان التاجر ينير الطريق لسياسة الإمبراطورية ويمدّها بالمعلومات اللازمة، كان الكاهن أعظم فائدة في التمهيد للسياسي (١٣٢).

ولم يَنْفِ المطران يوسف الدبس أسقف بيروت الماروني في

---

(١٣٠) «المفصَّل..»، المرجع نفسه، المجلد السادس، ص ٦١٣.

(١٣١) إسرائيل ولفنسون: «تاريخ اللغات السامية»، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٩، ص ٢٦٠.

(١٣٢) «L'Orient Chrétien ..» op cit., p. 53.

مطلع القرن العشـرين هذه العـلاقة بـين الغرض التجـاري والتبشير البيزنـطي حين قـال : «إنه كـان بين الحميـريين في اليمن كثـير من المسيحيين ، لكن الملك كـان يهـوديـاً اسمـه دميون ، فسطا على قافلة لتجار رومانيين عند مرورها ببـلاده إلى الحبشـة ، فوقف دولاب التجـارة مع الحبشـة ، واستـاء يـوستينس وملك الحبشـة من هـذا الصنيـع ، فحمـل ملك الحبشة بإمداد يوستينس على دميون فقتله وانتهب بلاده وأقام مكانه ملكاً مسيحياً (١٣٣) .

واتّبع الفرس أسلوباً مشابهـاً ، للنفاذ إلى مـداخل البحـر الأحمر . فأيّدوا اليهودية اليمنيّة في مقـاومة الاحتـلال الحبشي الذي كانت تدعمه بيـزنطيـة بالسفن (١٣٤) . كـذلك سـاند الفرس المسيحيين النساطرة في إنشاء كنائس لهم على شواطىء الهند وفي جزيرة سُقطرى (١٣٥) . ويؤكد بروكوبيوس المؤرخ الكنسي المسيحي أن الصـراع على اليمن كـان سببه محـاولـة بيزنطية «منع سقوط طرق التجارة في أيدي العدو» (١٣٦) .

---

(١٣٣) المطران يوسف الدبس : «من تاريخ سورية الدنيوي والديني» (بلا تاريخ ولا ناشر) ، المجلد الرابع ، ص ٤٢٩ .

(١٣٤) إبـراهيم محمـد الصلوي : «قصـة أصحـاب الأخـدود» ، الجـامعـة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ .

(١٣٥) «المفصَّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد السابع ، ص ٢٧٩ .

(١٣٦) «Mohammad», op. cit., p. 31.

وفيما كان النصارى يقولون إن الحبشة غزت اليمن لأن الملك اليمني اليهودي يوسف أسأر (الشهير بذي نواس) ، قتل نصارى نجران ، فإن الوقائع تؤكد أن الحبشة احتلت اليمن غير مرة قبل واقعة نجران نحو سنة ٥٢٥ للميلاد [١٣٧] . ولذا يميل المؤرخون المدققون إلى القول إن ذبح نصارى نجران ، كان إحدى نتائج الصراع اليمني - الحبشي المحلي (في إطار القتال البيزنطي الفارسي) ولم يكن سببه على الإطلاق . وإذا صح ما قاله رودانسون ، إن المنذر الثالث ملك الحيرة والنساطرة في مملكته أيدوا ذا نواس [١٣٨] ، فإن خريطة التحالفات جمعت بذلك اليهود والنساطرة مع الفرس من جانب ، واليعاقبة مع بيزنطية ، على الرغم من أن علاقات بيزنطية مع اليعاقبة في مصر وسورية لم تكن علاقات تحالف في ذلك الوقت على الإطلاق . لكنه لا بد من أن نلاحظ في هذا الشأن أن نصارى نجران كانوا يعاقبة على الأرجح [١٣٩] ، ولذا كان معقولاً

---

(١٣٧) «قصة أصحاب الأخدود» ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(١٣٨) «Mohammad» op cit., pp. 31, 32.

(١٣٩) «L'Orient Chrétien ..» ,op. cit.,p.199. ، وكذلك أحمد أمين : «فجر الإسلام» ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٦ .

ومنطقياً أن تسارع الحبشة ، اليعقوبية هي الأخرى ، إلى القتال . أما اغتماس بيزنطية في هذا الأمر فظل مثيراً للعجب ، حتى أثبت المؤرخ العربي الكبير المتخصص في تاريخ الجاهلية العربي عرفان قعوار (شهيد) أن أبرهة الحبشي ملك اليمن ثار على النجاشي واعتمد المذهب الخلقيدوني في عهده ، فأرسل إليه الإمبراطور يوستينوس الأسقف غريغنتيوس على المذهب البيزنطي الرسمي (١٤٠) . ويفسر سيمون ، مَيْلَ أبرهة إلى بيزنطية بالقول إنه كان أصلاً عبداً لتاجر بيزنطي في أدوليس ، المدينة الحبشية التجارية (١٤١) . إلا أن تفسير تاريخ احتلال الأحباش لليمن ، يجب ألا يفصل عن الإطار العام للسياسة البيزنطية التي كانت تسعى ، لا من الجنوب فقط ، بل من الشمال أيضاً ، إلى احتلال الجزيرة العربية ، والحجاز بخاصة بواسطة وكلائها . ففيها كان أبرهة يبذل محاولتين لكسب خضوع القبائل العربية ، قبل أن يعزم على تجهيز حملته الشهيرة بحملة الفيل ، على مكة (١٤٢)

---

(١٤٠) Irfan Shahid : «Bayzantium in South Arabia», The Dumbarton Oaks Center for Byzantine Studies , 1979 ,p. 27 .

(١٤١) R. Simon : «L'Inscription Ry 506 , et la Préhistoire de la Mecque» , Acta Orientalia (Hungaria), XX (1967),p. 330 .

(١٤٢) «L'Inscription Ry 506 ..» ibid, p 331 .

كانت غسّان ، بإيعاز من بيزنطية ، تحاول ملاقاته من الشمال ، بشن سلسلة غارات ، على يثرب وخيبر . ولم تكن صدفة أن اليهود الذين قاوموا الغزو الحبشي في اليمن ، استَهْدَفوا لغزوات الغساسنة في شمال الحجاز أيضاً . ذلك أن المكّيين كانوا يفرضون العشور على تجار بيزنطية (١٤٣) .

وكان لا بد للإمبراطورية من السيطرة على الطريق التجاري المار عبر مكة . وكانت سياسة يوستينوس الذي اعتلى السدة الإمبراطورية من ٥٢٧ حتى ٥٦٥ للميلاد ، تقضي تهدئة النزاع المباشر مع الفرس ، ودفع المسيحية في الجزيرة العربية من أجل «رومنة» العرب (١٤٤) . لهذا الغرض يُعتقد أن الحارث بن جبلة ، ملك الغساسنة ، أرسل سفارة إلى أبرهة سنة ٥٤٣ للميلاد (١٤٥) . ويروي أبو الفرج الأصفهاني في

---

(١٤٣) Muhammad Hamidullah: «AL- Ilaf ou les relations économico - diplomatiques de la Mècque pré - islamique» , Mélanges Louis Massignon II (1957), p. 297 .

(١٤٤) W. Montgomery Watt : «Muhammad at Mecca» , Pakistan ., 1979 , p. 12 .

(١٤٥) «L'Inscription Ry 506 ..» op cit . p. 331

«الأغـاني» [١٤٩] أن الغساسنـة قتلوا أعيان اليهـود في يثـرب بترتيب أعده الملك الغساني «أبو جبيلة» ، ولعله الحارث ابن جبلة ، الذي قال للأوس والخزرج : «إن لم تَغلِبوا على هذه البلاد ، بعد من قتلت من أشراف أهلها فلا خير فيكم» ، ثم رحل إلى الشام . وإلى الحارث بن جبلة أيضاً تُنسب قصة قتل ابن السموأل بن عاديا الشاعر اليهودي [١٤٧] ، الـذي أودع لديه امرؤ القيس دروعه في القصة الشهيرة .

وفي كتابة أثرية مهمة تدعى كتابة حران ، نص قصير جاء فيه : «نا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنـة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم» [١٤٨] . وفك ليتمان رموز هذا النص عـلى النحو التالي : «أنا شراحيـل بن ظالم بنيت ذا المـرطول سنـة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعام» . وإذا علمنا أن التقويم الـذي كان متّبعاً آنذاك يبدأ بسنـة ١٠٥ أو ١٠٦ (تقويم بُصـرى ، منذ سقوطها في يد الرومان) ، يتضح أن «مفسد خيبر» ، إنما وقع سنة ٥٦٧ للميلاد . ويفسر ليتمان عبارة «مفسد خيبر» ، بـأنها تشير إلى غـزو ملوك غسّان للمـدينة التي كـانت تغلب

(١٤٦) الأغاني : «طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، المجلد الثاني والعشرون ، ص ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ .

(١٤٧) «المفصّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ٤١٠ .

(١٤٨) «المفصّل . .» المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص ٥٩٤ .

عليها الصفة اليهودية (١٤٩) . وتصدق بذلك رواية ابن قتيبة الدينوري ، الذي قال إن الحارث بن جبلة غزا خيبر وسبا أهلها . وهذه الغزوة لم تكن معزولة ، إذ ان الحارث استغل انتماء غسان ، والأوس والخزرج قبيلتي يثرب إلى العرب اليمانية معاً ، ليتقرب منهما ، ويدفعهما دفعاً إلى السيطرة على المدينة (١٥٠) ، فيما كان أبرهة من الجنوب يقاتل اليهود أعداء بيزنطية ، وحلفاء الفرس ، في مسعى مزدوج منسق غرضه الالتقاء في الحجاز حيثما يلتقي الفريقان ، لإحكام السيطرة على الطريق التجاري المار عبر مكة .

في هذا الإطار يُمكن قراءة تاريخ غزوة الفيل الحبشية الفاشلة على مكة . وهذا هو ما يراه الدكتور عرفان شهيد في تفسيره التاريخي لسورة الفيل ، في القرآن الكريم (١٥١) . والواقع أن المسيحية لم تبق عند أطراف الجزيرة العربية في صيغتها اليعقوبية (في نجران) ثم البيزنطية (بعد احتلال أبرهة

---

(١٤٩) «المفصَّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد الثامن ، ص ١٧٧ ، ٥١٩ .

(١٥٠) «L'Orient Chrétien ..» op. cit., p. 169 .

(١٥١) Irfan Shahid : « Two Qur'anic Suras : Al - Fil , and Quraysh » في مجلد « دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس » ، تحرير د. وداد القاضي ، الجامعة الأميركية في بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٤٣٥ .

لليمن) وفي صيغتها النسطورية في الحيرة[152] وفي البحرين[153] . بل إن دومة الجندل في وسط الجزء الشمالي من الجزيـرة على الـطريق بين يثـرب والحيرة، كـانت تسكنها جـالية مسيحيـة كبيرة[154] وكان ملكها أكيدر بن عبد الملك الكندي نصرانياً يوم فتحها[155] . بل استطاعت المسيحية أن تجتاز الجـزيرة، ولكنها لم تتمكن من أن تستقر فيها على خط متصل لا انقطاع فيـه ، من اليمن إلى بر الشـام . وقد حـاول كتابنـا «وحـدة المجتمع في الإسلام» [156] ، أن يضع تفسيراً أنتروبولوجياً ، لصعوبة انتشار الدين في المجتمعات البدويـة غير المستقـرة . إلا أن ثمة أسباباً سياسية مباشرة أيضاً عسّـرت مهمة وغـول المسيحية في عمق الجزيرة . يُستدل على هذا بمشـاعر العـداء التي استنفرت القبائل العربيـة ، فانتـظمت لتقاوم أبـرهة في

---

(١٥٢) «كتاب الأغاني» ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ .

(١٥٣) «المفصَّل . . » ، المرجع السابق ، المجلد الرابع ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠، ٢١١، ٢١٣ . وكذلك : «Christianity Among ..» op. cit., pp. 279 to 286 .

(١٥٤) «Christianity Among ..» ibid .pp. 277, 278 .

(١٥٥) «المفصل . . » ، المرجع السابق ، المجلد الرابع ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(١٥٦) وهو الجزء الثاني من كتاب «ضـرورة التراث» ، دار العلم للمـلايين ، بيروت ، ١٩٨٤ .

زحفه على مكة [١٥٧] ، على رغم أن مكة كانت لقريش . ولم يكن معهوداً أن يظهر مثل هذا التضامن الـذي نسميه اليـوم «قومياً» ، في ذلك العصر القبلي . والواقع أن بعض المؤرخين يرون في هذا الاستنفار بذور الروابط التي جمعت الأمة لـدى ظهور الإسلام . وثمة حادثـة أخرى تـدل على أن الأسبـاب السيـاسية عـرقلت تقدّم المسيحيـة في الحجاز ، هي حـادثـة عثمـان بن الحـويـرث بن أسـد ، ابن عم خـديجـة زوجـة الـرسـول ، الـذي طلب المُلْكَ في مكـة فتنصّر ، واستنصر بيزنطية لمسعاه ، وقُتلَ دون ذلك ، قتله الغساسنة لما فشل ، في بعض الـروايات [١٥٨] ، أو قتله المكّيـون بـأنفسهم ، في بعض الروايات الأخـرى [١٥٩] . غير أن مونتغمري وات لا يتردد في القول إن سبب فشله هو رفض المكيّين الانحياز إلى بيزنطية في صراعها السياسي مع الفرس [١٦٠] . ولا شك في

---

(١٥٧) M. J. Kister : «The Campain of Huluban , A new light on the expedition of Abraha» , Le Muséon , 78 (1965), pp. 425 to 436 .

(١٥٨) «المفصَّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد الرابع ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(١٥٩) د. رضوان السيّد : «جدليّات العقل والنقل والتجربة التاريخية للأمة في الفكر السياسي العـربي الإسلامي» ، مجلة الفكـر العربي ، العـدد ١٥ (أيار ـ حزيران ، ١٩٨٠) ، بيروت .

(١٦٠) «Muhammad at Mecca» op. cit ., pp. 15, 16 .

أن المسيحية كانت ضعيفة في مكة ويثرب لدى ظهور الإسلام (١٦١) على رغم ما يراه الأب لويس شيخو في كتابه المهم «شعراء النصرانية في الجاهلية» (١٦٢) . نقول هذا يا غبطة البطريرك لا لننفي قولكم إن الحجاز كانت بلداً للمسيحية فقط ، بل لنستخلص العبرة التاريخية الصريحة ، من انتشار المسيحية انتشاراً سريعاً عندما كانت عقيدة مناضلة من أجل التحرير في مصر وسورية ، ومن صعوبة انتشارها حين حملتها الجيوش الأجنبية الغازية عنواناً للسيطرة على الشعوب .

---

(١٦١) «المفصَّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ .

(١٦٢) طبعة مكتبة الآداب ، في ستة أجزاء ، القاهرة ، بلا تاريخ . مصورة عن طبعة الآباء المرسلين اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٦ .

الفصل السادس

والعروبة قبل الإسلام . . . ولكن !

صاحب الغبطة ،

إن إرنست رينـان ، المؤرخ الفرنسي الـذي لم يُعهـد فيـه إنصـاف الإسـلام عـلى وجـه الخصـوص ، يقـول في أحـد أبحاثه ، إن الإسلام كان نتيجة لصحوة الأمة العربية (١٦٣) . ويصف فون غرونباوم نهوض الإسلام من الجزيرة بأنه «يقظة ضمير قومي ، لا مجرد ائتلاف قبلي» (١٦٤) . ولذا فالمؤرخون يعتقدون أن الإسلام هو أعظم تعبيرات العروبة عن ذاتها . وهو تعبير لا يتناقض مع محاولات التعبير السابقة ، وبخاصة

---

(١٦٣) Edmond Rabbath : «Mahomet, prophète arabe et fondateur d'état» , Publications de l'Université Libanaise , Beyrouth , 1981 , p. 24 .

(١٦٤) G. E. Von. Grünebaum : «the Nature of the Arab Unity before Islam» , Arabica X (1963) , p. 13 .

المسيحية في صِيَغِها العربية التاريخية . وأَعجبُ، لمن يَعجَبُ لوقوف النصارى العرب ، نساطرة ويعاقبة على الخصوص ، في صف الإسلام ضد بيزنطية والفرس عند ظهوره(١٦٥) . إن بتلر لم يفهم علاقة الرحم الوثيقة بين النصرانية العربية والإسلام حين أبدى حنقه على الأقباط لفتحهم أبواب مصر على مصاريعها للمسلمين . ويرى موسيل ، مناقضاً كايتاني ، أن الفتح الإسلامي لم يكن هجرة سامية أخرى سببها الجفاف والجوع ، وأن ما ذكره كايتاني عن تعداد نفوس الحجاز مبالغ فيه ، وأن الجيوش التي اشتركت في فتح العراق والشام وفلسطين لم تكن حجازية أو نجدية وحسب ، بل كانت فيها قبائل عراقية وشامية نصرانية ، ساعدت أبناء جنسها العرب مع اختلافها مع المسلمين في الدين ، وحاربت الروم والفرس(١٦٦) . ويؤكد البلاذري في «فتوح البلدان» أن الغساسنة لما أرسلهم هرقل ، إمبراطور بيزنطية لمقاتلة المسلمين ، انحاز ملكهم جبلة بن الأيهم إلى الأنصار قائلاً : «أنتم إخوتنا وبنو أبينا» وأظهر الإسلام(١٦٧) وقد ورد في شعر لحسّان بن ثابت الشاعر النصراني الذي كان موالياً

---

(١٦٥) ديلاسي أوليري : «علوم اليونان . .» ، المرجع السابق ص٩٧ .
(١٦٦) «المفصَّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٥٠ .
(١٦٧) «المفصَّل . .» ، المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ٤٢٧ .

للغساسنة ، ثم أسلم ، ذمُّ وهجاءُ لسلامة بن روح الجذامي ، وكان يلي العشور للروم ، فشبهه «بدمية في لوح باب» [168] . وعلى الرغم من أن جميع سكان سورية والعراق كانوا مسيحيين على هذا المذهب أو ذاك وقت الفتح [169] ، فإنهم نصروا المسلمين على النحو الذي جعل الفتح أشبه بالسحر ، لسرعته وقوة اندفاعه المذهلة . وإذا أردنا أن نستعيد بعض صور هذا الفتح ، فلا بأس أن نستشهد كتاب هاناور «الفولكلور في الديار المقدسة» [170] إذ يقول مارماديوك بكتهول في مقدمته : «لقد سمعت المسيحيين والمسلمين على السواء ، يمتدحون خُلُق عمر [بن الخطاب] ، إذ يروون أن الرجل وصل فجأة [إلى القدس] على ظهر الناقة التي أقلته من المدينة ، ليتقبل بنفسه تسليم القدس الشريف . فقاده عبيد بيزنطية إلى كنيسة القيامة ، وتوقّع الجميع أن يقيم الصلاة فيها ويحوّلها جامعاً . لكنه أحجم عن اجتياز العتبة ، وصلّى من خارج على اسم عيسى . وكانت قسوة عمر على المسيحيين أقل مما توقّعوا ،

---

(١٦٨) «المفصَّل . . » ، المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ٤٣٨ .

(١٦٩) Christianity Among ..» op. cit., p. 6.

(١٧٠) J. E. Hanauer :«Folklore of the Holy Land» , London, 1907 , Introduction by Marmaduke Pickthall .

حتى أضحى في الذاكرة الشعبية [لدى المسيحيين] محسناً إلى دينهم . . . وإذا أسلم منهم الكثير ، فبدافع المصلحة أو الاقتناع ، لا بحد السيف ، على نحو ما يقال . والحق أن السماحة التي أبداها المسلمون ، على رغم أنها أقل مما يحق توقّعه اليوم ، إنما كانت لا نظير لها في أوروبة ، حتى بعد مرور قرون لاحقة . فالصليبيون لم يجاروهم في هذه السماحة قطعاً . وحين سارعوا إلى كنيسة القيامة ليحرروها من «الكفرة الأشرار» ، أدهشهم أنها كانت في حوزة المسيحيين . فعمدوا ، إخفاءً لارتباكهم ، إلى اتهام هؤلاء بالهرطقة» .

«تناقض» العروبة والإسلام !

إن هذه الوقائع جميعاً يا غبطة البطريرك ، تدلّ على أن المسيحيين والمسلمين في القرون الماضية، فهموا أن البلاد لشعوبها، لا لدين دون آخر. ودولة الإسلام التاريخية بالذات، تمتاز من الناحية الدستورية على كل ما عداها من الدول التاريخية الكبرى ، في أنها أحكمت جامعتها السياسية على مبدأ التعدد الديني . ويقول د. إدمون رباط في أحدث كتبه «الفتح العربي ، في عهد الخلفاء الراشدين» (١٧١) ، إن معاقل

---

(١٧١) «La Conquête Arabe sous les quatre premiers califes» , publications de l'Université Libanaise , Beyrouth , 1985 .

المقاومة التي اختارت المكوث على المسيحية لم تُعانِ أي قسر لمفارقة دينها» . ويضيف قوله : «وفي أيامنا يرتجف مسيحيو لبنان هلعاً ، لدى ذكر عبارة «الذمة» . . على الرغم من أنهم يدينون لنظام أهل الذمة ببقائهم . إن المقارنة البسيطة بالأساليب التي كانت معتمدة في أوروبة على مرّ العصور ، لإزالة الخلافات الدينية ، هي مقارنة مفيدة جداً في هذا الصدد» .

ولقد مضى زمن منذ كنّا نسمع من مسيحيين أن العروبة خير ملجأ لهم من الإسلام . فإذا طرحت اليوم مسألة العروبة على نحو جدي ، في علاقات عضوية مقترحة مع سورية ، سُورِع إلى القول : لنأخذ من العروبة المقدار الأقل ، وكأن المقصود أولاً وأخيراً تجنب العلاقات الوحدوية على أي صعيد وفي أية صيغة . وكأن العروبة والإسلام يتناقضان ، أو كأن المسيحية نقيض آخر لهذه العروبة وذاك الإسلام .

فهل تتناقض العروبة حقاً مع الإسلام ، أو هل يترادفان ؟ إن مسألة التناقض مسألة فاسدة ، لأنك كمن يقول إن الروابط العائلية تتناقض مع الروابط الوطنية . إن لكل منهما صعيداً . وإن العروبة سابقة للإسلام ، مثلما أثبتنا أنها سابقة للمسيحية ، والسبب بسيط . فأقدم الدلائل الأثرية على وجود العروبة ، سبق المسيحية تسعة قرون ، وسبق الإسلام

خمسة عشر قرناً . والعروبة ظهرت قبل الإسلام في دولة بني جفنة الغسّانية ، ودولة المناذرة اللخميين ، وفي الدولة النبطية ، وثمة من يقول إن بابل كانت دولة عربية ، أُطلقت عليها تسمية عاصمتها وقصبتها . بل إن العروبة مهّدت لظهور الإسلام ، حين تفاعلت القبائل تفاعلاً سياسياً ولغوياً واقتصادياً ، بل ودينياً في تطوّر إيلاف قريش ، والرحلتين ، وسوق عكاظ وغيرها ، والمقاومة العسكرية والسياسية التي جبهت أبرهة . كل هذه دلائل على أن العروبة سبقت الإسلام .

ولكن ، كيف كانت العروبة قبل الإسلام ، وكيف أصبحت بعده ؟

لقد أعزّ الإسلام العروبة إعزازاً لم تبلغه في التاريخ من قبله ، فأنهى تشتت القبائل ، ورذل التبدّي ، وأحل جامعة الأمة محل العصبية القبلية ، وأنهى دولتي الوكلاء : دولة الغساسنة وكلاء الغرب البيزنطي ، ودولة المناذرة اللخميين وكلاء الشرق الساساني ، وأنشأ للعروبة استقلالها التاريخي ودولتها الكبرى . وإذا كنا نحن المسيحيين ننتمي إلى العروبة ، فإن الإسلام أعزّنا أيضاً .

لكنّ البعض يتّخذ نصارى العرب ذريعة ومسوّغاً ليقول بالتناقض بين الإسلام والعروبة . يقولون : إذا قلنا إن

الإسلام والعروبة لا يتناقضان، ، فأين مكانة العرب المسيحيين فيما بيننا ؟ ولعل كثيراً من قائلي هذا القول من ذوي النيّات الحسنة . لكنهم جميعاً لا يتخذون معيارنا التاريخي لقياس الأمور ، بل معيار أوروبة ، التي أقامت وحدة دولها على وحدة الإيمان الديني فيها ، وكان حتماً أن تتناقض الكاثوليكية مع النهوض القومي ، لدى كثير من الأقوام .

والإسلام ليس الكثلكة ، لأن الإسلام لم يضع التشريع وسلطته في أيدي إكليروس مركزي . ولذا أمكنت الثورة من داخل الإسلام ، وتعذرت الثورة من داخل الكثلكة ، وكان لزاماً أن تكون ثورة عليها ، حتى تقام دول قومية موحّدة ، مواطنوها يدينون بأديان عديدة حرة . أما دولة الإسلام فاحتوت التعدد الديني بنظام أهل الذمة ، فكيف بدولة العروبة العصرية المنشودة ؟

إن العروبة لا تتناقض والإسلام . بل إن العروبة جزء من الإسلام ، إذا نظرنا إلى ديار العرب ضمن العالم الإسلامي . والإسلام جزء من العروبة ، إذا نظرنا إلى واقعنا ، نحن النصارى العرب داخل ديار العروبة . فالإسلام تراثنا أيضاً .

الإسلام السياسي المجاهد من أجل الاستقلال ، هو لنا .

والإسلام التاريخي الذي أقام للعرب والمسلمين حضارتهم التاريخية ، هو لنا .

والإسلام اللغة القرآنية ، والتجويد وإيقاع الكلمة ، **هو** لنا .

والإسلام العلوم والعمارة والفنون ، هو أيضاً لنا .

أين تناقض المسيحية والإسلام ؟

وفي الحضارة عموماً لا نستطيع القول فقط إن لا تناقض بين العروبة والإسلام ، بل في مِكنتنا القول إن لا تناقض بين النصرانيّة العربية والإسلام والعروبة سواء بسواء .

لكن أية نصرانية يا غبطة البطريرك ؟

إننا ممن يؤمنون بأن تراث الإسلام جزء من وجدان النصارى العرب وتكوينهم التاريخي ، وبأن تراث النصرانية العربية مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية أيضاً . فالموسيقى السريانية والأزجال السورية البدوية وكل ما شاكلها من ميراث خلفه المسيحيون في البادية والحواضر لحفدتهم ، أصبحت جميعاً تراثاً مشتركاً لحضارة العروبة بمسلميها ومسيحييها . وبين هذه المسيحية والإسلام لا أرى أين التناقض .

لكن هذا التناغم والتكامل لا يثبتان حين تصبح المسيحية هي مسيحية الغزو الثقافي والوكالة الأجنبية ومسمار جحا

السياسي الغربي . إن ثمة مسيحية نريدها نحن لأننا نؤمن بالعقيدة الحرة ، وثمة مسيحية يريدها الغرب نوعاً من المطايا يتسلل بها إلى منطقتنا ، وكأنها حصان طروادة . هذا النوع من المسيحية هو مصدر المخاطر على العرب المسلمين والمسيحيين . ذلك أن التعدد الديني ليس مباحاً فقط في صيغتنا السياسية التاريخية ، بل إنه ميزة كنا نمتاز بها على الدنيا . أما «التعدد الثقافي والحضاري» ، فهو يعني التعدد السياسي والانفصال والتفتت وحرية الوكالة الأجنبية . وهذا أمر لا يستطيع أن يسمح به ، لا المسيحيون العرب ، ولا المسلمون . لقد كانت مسألة الوحدة والاجتماع من أخطر المسائل التي عالجها الإسلام في مسعاه إلى تحرير العرب وإعزازهم . فالإسلام أسمى يومه المقدّس يوم «الجمعة» ، وأسمى صلاته الأسبوعية الصلاة «الجامعة» ، وأسمى المعبد الذي تقام فيه هذه الصلاة المسجد «الجامع» ، وأبطل الإسلام صلاة الجمعة إذا لم يجتمع لها أربعون مصلياً على الأقل . الإسلام إذن في معناه السياسي الأول ، لا في المعنى الذي يتخذه له المنافقون ، دين وحدة واجتماع . حتى أن الرسول كفل للمسلمين مباركة الله لكل ما يُجمعون عليه ، في أحاديث لا تحصى منها «إن الله مع الجماعة» ، ومنها : «إذا اجتمعت أمتي على أمر كان الله معها» ، وما إليها .

ولذا فإن ثمة تبعات تلقى اليوم ، كما لم تُلقَ من قبل ، على عواتق الزعماء النصارى العرب ، من أجل تبديل النزعة التي تسعى إلى تعكير صفو انسجامهم الثقافي والحضاري والسياسي مع مواطنيهم المسلمين . فإذا فشلوا في هذا الأمر ، وواصل وكلاء الغرب الثقافيون والسياسيون مسعاهم لتغريب النصارى العرب ، وإذا استطاع المخطط الإسرائيلي التفتيتي أن يدفع العرب المسلمين إلى إنزال سيف التنكيل الطائفي بالعرب المسيحيين ، المتمغربين والعروبيين على السواء ، فإن إسرائيل تكون قد أفلحت في القضاء على المجتمع العربي المسيحي ، واستطاعت تجريد الإسلام التاريخي من أعظم مآثره الدستورية ومفاخره السياسية التي يمتاز بها على الغرب الاستبدادي التاريخي .

لقد قال أحد ساسة فرنسة العلمانيين في أوائل هذا القرن : «إن كراهة الإكليروس ليست سلعة للتصدير» . ففرنسة التي قضت في ثورتها العلمانية على سلطان الإكليروس ، ارتأت احتمال الاستفادة من هذا الإكليروس في الخارج ، فدفعته إلى التبشير ، لأسباب لا نستطيع أن نتهم العلمانيين بأنها تتعلق بالإيمان ، أو بالحرص على مصالح المسيحيين أو عقيدتهم . لقد كانت الحوافز السياسية هي التي حثت قناصل الغرب في القرن الماضي على تحضيض المسيحيين

في البلقان وأرمينية وجبل لبنان ، وغيرها من المناطق العثمانية ، ليقيموا مؤسساتهم الثقافية والتربوية والاجتماعية والسياسية المنفصلة .

ونحن مثلكم يا غبطة البطريرك نعترف بالواقع وبأن اللبنانيين منقسمون طوائف ومذاهب . ولكننا نرى بوناً ، بين ملاحظة الواقع وقبوله . ولا يخطر ببالنا لحظة أنكم ممن يقبلون هذا الواقع . ولهذا الواقع أسبابه التاريخية التي يقول البعض إنها نظام الملل العثماني ، والبعض الآخر الحماية والامتيازات الأوروبية . وفي أية حال ، فإن المنطق يقضي أن نعالج النتائج بمحاولة إزالة الأسباب ، لا بتثبيتها والتشبث بها ، وكأنّ ما حدث لم يقنعنا بالفشل التاريخي للتصنيف الطائفي في العمل السياسي والثقافي .

الطائفية والفتنة

ولا بد ها هنا من أن نؤكد أن نظامنا القائم في لبنان ليس نظاماً طائفياً ، بل نظام تعسفي خالص . فالنظام الطائفي ، إذا شئنا اعتماد منطقه ، لا بد من أن يحصي الناس ، ويعطي الطوائف مقدار ما يستحقه تعدادها ، من السلطة والحصص في الدولة . فتعطي الرآسة مثلاً للطائفة الكبرى ، ورآسة الحكومة للطائفة الثانية وهكذا . ونظامنا ليس قطعاً نظاماً

ديمقراطياً ولا حتى بالمعايير الغربية . ففي الغرب لا يقيسون الكثرة والقلة بتعداد الطوائف ، بل بانتخابات ، هي مثابة إحصاء دوري لمعرفة نسبة المؤيدين لليمين ونسبة المؤيدين لليسار ، حتى يُعطى كل منهما حصته التي يستحق في الحكم . ولا تدخل الطوائف في هذا التعداد . أمّا أن نمكث على رأينا في مسألة اقتسام حصص تتناتشها طوائف تزعم كل منها أنها ازدادت تعداداً ، وأن حقوقها لم تعد تتناسب مع حصتها ، ونصر في الوقت نفسه على رفض أي شكل من أشكال «الإحصاء» ، فذلك أمر نرى اليوم عاقبته ، ولا نشك لحظة في أنه سيعاود إفراز العواقب المشابهة بين فينة وفينة .

يا صاحب الغبطة ، إن مصدر العلة الأول ، هو هذه الطائفية السياسية التي جعلت للمسيحي قيمة سياسية وللمسلم قيمة سياسية ، لا علاقة لها بقناعاته الخاصة ومواقفه المضمرة أو المعلنة . وفي مواجهة هذه الفتنة على المسلمين والمسيحيين واجبات .

ـ فعلى المسلمين أن يفرّقوا بوضوح بين النفاق والإسلام ، مثلما فعل الرسول في يثرب . إن المنافق هو الذي يردّ على الفتنة الطائفية برفع شراعه لينفخ فيه ريح الفتنة . إن أسلوب الفتنة بسيط ، يقوم على تلازم الفعل ورد الفعل . ومن يردّ على فعلٍ فتنويّ ، برد فعل فتنوي ، لا يستطيع

الادعـاء أنه ضـد الفتنة . ومن يعـارض خـطة إسـرائيـل الفتنوية الطائفية ، عليه أن يجتنب الفخ الـطائفي . وعلى الأحـزاب الإسلاميـة ، التي نـؤيّـدها في استنهـاض الهمم بالشعارات الإسلامية التاريخية الجهـادية ، أن تضـع خطاً فاصلاً واضحاً بين الإسلام والنفاق للإسلام . فـالإسلام كان يعرف نصارى دار الإسلام ، ومشركي دار الحرب .

ـ ومع حاجتنا إلى قول هذا الكلام بشجاعة ووضوح ، لا بد من القـول إن تبعات خـطيرة تقـع على المسيحيـين العرب وزعمـائهم ومفكـريهم وقـادتهم . فعليهم أن يصحـحـوا الـوعي التاريخي المـزيف الـذي شـاء أن يضـع المسيحيـة العربية في تناقض مع الإسلام والعروبة . وعلى الزعامات والقيادات العربية المسيحية أن تثبت اليوم ، أكثر مما أثبتت فيـما مضى ، أن المسيحية العـربيـة هي نقيض لإسـرائيـل والتفتيت والاستبـداد الأجنبي ، وأن يرفضـوا كلّ الصيـغ التي لا تستطيع أن تُورِدنا غير مورد الهلاك . إن لولا عبّود الأرثوذوكسية ، ونقولا صليبا الأرثوذوكسي ، والياس حرب الماروني ، وأنطوان أبي غانـم وغيرهـم من شهـداء المقاومـة وأبطالها ، يشفعون بالمسيحية العربية . وإن إعلان البـابـا شنودة الأخير ، الذي حظّر على الأقباط حجّ القدس طالما بقيت في دنس الاحتلال الإسرائيلي ، لهو أقـدر على حمـاية

المسيحية العربية من كل أساطيل الحلف الأطلسي ، التي كان قدومها إلى لبنان وبالاً على مسيحيي الجبل اللبناني وجوار صيدا .

إن العسكري الذكي يا غبطة البطريرك ، هو الذي يختار ميداناً لمقاتلة عدوّه يعرف أنه يلائمه . والقتال الطائفي ليس هذا الميدان قطعاً . إن ميدان القتال الطائفي هو الذي جعل إسرائيل تقاتلنا بسلاحنا ورجالنا ، وتهزمنا دون أن تتجشم أي عناء غير عناء التفرج . وما دمنا نصنّف أنفسنا في السياسة ، مسلمين ومسيحيين ، سنظل في الميدان الذي اختارته لنا إسرائيل . إن أرض الطائفية السياسية هي أرض الهزيمة الحتم .

يا صاحب الغبطة ، إننا نعتمد على مواقفكم الوطنية الشجاعة ، وعلى مواقف أمثالكم ، حتى لا تتحوّل المسيحية العربية «دمية في لوح باب» ، لأننا اخترنا البقاء ، واخترنا العروبة ومحبة الإسلام الحضارة والتاريخ ، ولن يثنينا شيء عن رفض سلطان عدوّنا التاريخي .

والسلام عليكم ورحمة الله .

الملحق الأول

آراء للبطريرك أنطونيوس بطرس خريش

«الحوادث» : ١٨ / ١٠ / ١٩٨٥

شاعت أخبار مفادها أن البطريرك الماروني مار أنطونيوس بطرس خريش عازم على الاستقالة لأسباب تتعلق بالحرب في لبنان . ونشرت مجلة « الحوادث » تحليلاً إخبارياً ضمّنته آراء للبطريرك ، قالت إنها في كتب البطريرك خريش ورسائله إلى الفاتيكان . وفيما يلي الجزء الذي يتضمن آراءه ، مثلما جاءت في المجلة :

ويأخذ هؤلاء من كتب ورسائل الكاردينال خريش فقرات عديدة يحدد فيها النظرة الأصيلة إلى العلاقة بين الإسلام والمسيحية .

وترد بين هذه الفقرات ما يلي :

«لقد آن لنا ، في هذا البلد ، أن نخلع عنا معطف الجبن والخوف ، أن نتعرى من أوهام ورواسب ورثناها بل فرضت علينا قسراً وكرهاً .

لقد آن لنا أن نواجه الواقع بتجرد وإخلاص . آن لنا أن نرتفع إلى مستوى ثقافتنا ، إلى مستوى مسؤوليتنا كمواطنين .

لقد مررنا ، نحن المسيحيين بصورة خاصة ، بمراحل من الحياة جعلتنا نشرب السم رويداً رويداً ، وبجرعات قليلة ، فنشأنا وترعرعنا ، ومعنا نشأ السم وترعرع ، فإذا بنا ننظر إلى الإسلام والمسلمين نظرة تفتقر إلى الكثير من المحبة والتقدير ، حتى لخُيِّل إلى الكثيرين منا أن السماء لنا دون سوانا .

أسباب ذلك كثيرة ، أهمها إطلاقاً ما فعل الفكر الغربي ، بصورة عامة ، في خواطرنا وأذهاننا وعقولنا . والفكر الغربي هذا غالباً ما يكون جانحاً ذا مصلحة . فالغرب الطامع بالشرق لجأ إلى وسائل عديدة ، وفي طليعتها بذر بذور الشقاق ، ولا سيما في الحقل الديني والطائفي . ومن المتعارف عليه أن الأقلية دائماً على حذر . والمسيحيون أقلية في الشرق العربي ، فوجد الغرب فيهم حقلاً خصباً ، فألقى حبة الزرع فنمت ، وإذا السنبلة تصبح خمسين .

ونشأنا ، نحن المسيحيين ، على هذا الواقع دون أن يترك

لنا مجال للتفكير في صحته ، أو في ملاءمته على الأقل ، ولعبت السياسة دورها ـ السياسة لا الدين ـ فجعلت المسلم ينظر إلى المسيحي نظرة بعيدة عن المحبة والتقدير لأنه اعتبره ، في هذا الشرق ، حائلاً دون تحقيق الأمنية الكبرى : السيادة والاستقلال ثم الوحدة .

ولم يقتصر دور الغرب على المسيحيين فحسب بل تعداهم إلى المسلمين ولعب اللعبة ذاتها ، معكوسة ، وانطلاقاً من مبدأ «فرق تسد» وصلنا إلى واقع مؤلم جعل الدين ضحية السياسية ، وجعلنا جميعاً نبتعد عن الله وعن السماء بسبب ابتعادنا بعضنا عن بعض .

إلا أن قلة من المواطنين أخذت ، منذ فترة من الزمن ، تتحرر من تلك الرواسب وتحطم قيوداً كبلت أفكارها قبل أيديها ، وانطلقت في طريق جديد ، طريق الانفتاح والتعارف والاحترام المتبادل ، وتقييم الأمور بقيمها الحقيقية ، بعيدة عن كل غلوّ ومغالاة وتطرف .

لقد تصارعت المسيحية والإسلام ، عبر التاريخ ، أكثر من مرة ، وتعايشا وتحابا وتفاهما خلال حقب طويلة . وفي النهاية أدرك المسيحيون والمسلمون أنهم جميعاً أبناء الله يؤمنون به وباليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف والخير والرفق والإحسان ، وينهون عن المنكر والباطل والظلم والجور .

واستقر في أذهان الجميع أن الدين والإيمان لا يمكن أن يشكلا أسباباً للخلاف والتباعد، بل على العكس من ذلك إنهما الحقل المشترك الذي يلتقي فيه الجميع .

وإذا كان التاريخ قد سجل على المسلمين تحويل بعض كنائس إلى جوامع ، فإن أجمل جوامع إسبانيا قد حولت إلى كنائس . ولا ضير على هذه ولا على تلك ، فكلها أماكن عبادة الله .

فالكنائس والأديرة والصوامع والهياكل ازدهرت ، حتى أنه ، في حكم المأمون في مطلع القرن التاسع ، كان الإسلام يملك على أرضه أكثر من أحد عشر ألف كنيسة مسيحية وعدة مئات من كنائس اليهود وهياكل عبادة النار .

ويوم أظهر حكام مسلمون ، فيما مضى ، قساوة على المسيحيين ، فإن هؤلاء الحكام قد أظهروا ، في الوقت نفسه أو في مناسبات أخرى ، قساوة على المسلمين من أبناء دينهم . فالقساوة وعدم التسامح بوسعنا أن نردهما ، في معظم الأحيان ، إلى خلق الحاكمين بقطع النظر عن دينهم » . . .

الملحق الثاني

تصريح البطريرك إغناطيوس هزيم

«الجمهورية» : ٦ / ١٢ / ١٩٨٥

حذر بطريرك إنطاكية وسائر المشرق لطائفة الروم الأرثوذوكس إغناطيوس الرابع هزيم من الخطر المتنامي على لبنان وهو «يستدعي اليقظة والاحتراس وخصوصاً الجهد فأوراقه مخربطة وعلينا مسؤولية إعادة ترتيبها» وفي نظرته إلى لبنان في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخه ، رأى غبطته أن القادة العرب بعدما أقروا أن لبنان دولة عربية فيجب أن تكون استقلاليته مثل استقلالية سائر الدول العربية» ومن ثم «فلا بديل عن لبنان من حيث الأرض والمساحة والبشر والنوع» وعن لبنان والعروبة أكد «أن لبنان مثل سائر الدول حيث العروبة لا تنفي الشخصية ولا تلغي الدولة . فلا يزايدنّ أحد على لبنان . إنه ذو خصائص وتمييز إنساني لكي لا نقول تمييزاً حضارياً » .

ودعا غبطته في حديث شامل أجراه معه رئيس تحرير

«الجمهورية» الزميل الياس المر ومدير التحرير الزميل خليل الخوري ، إلى «إلغاء المذهبية داخل الإسلام والمسيحية قبل إلغاء الطائفية السياسية فهي ليست بعبعاً» وفي باب ما يطلب من لبنان أن يكون عليه ، تساءل غبطته عن القواعد التي تتبعها كل من الدول العربية في سياستها وفي علائقها فيما بينها ليقول : «نحن مستعدون لنقتدي بتلك القواعد لا أكثر ولا أقل» فالدول العربية مختلفة الأنظمة» فهناك الدول ذات الأنظمة الملكية التي يحكمها ملوك وسلاطين وأمراء وشيوخ . وهناك الدول العربية الجمهورية التي يحكمها رؤساء جمهوريات وهناك أنظمة لا أعرف كثيراً عن طبيعتها وهي حرة في ما اختارت من نظام مثل ليبيا حيث لا ملكية ولا جمهورية «تلك هي الأنماط الثلاثة من الأنظمة» . و«نحن عندنا جمهورية في لبنان . نقول للجميع : تفضلوا اختاروا لنا جمهورية عربية ونحن مستعدون لأن نأخذ بنظامها ، بالنسبة إلى دور رئيس الجمهورية ولنطبقه ، ولعل رئيس الجمهورية ، في الجمهورية العربية السورية هو المثال الأقرب لنا في لبنان» و«رئيسنا يجب أن يحكم ، مثله مثل غيره ، وألا يكون لبنان مختلفاً عن العالم العربي . وطالما ارتضى الجميع لبنان دولة عربية فلماذا مسموح في سائر الدول العربية ، ما هو ممنوع في لبنان . وهذه النقطة هي في تقديرنا بالغة الأهمية . فلا يمكن

أن يطلب من لبنان أن يكون عربياً ، وهو ارتضى أن يكون . ثم يحظر عليه أن يكون رئيسه حاكماً كما هم الحكام العرب على اختلاف أنماط الحكم في بلدانهم» . وقال مستطرداً : العالم العربي ليس عالماً مسلماً فالدول العربية حكامها مسلمون . صحيح . ولكن هناك بين شعوبها نسبة من المسيحيين تختلف من بلد إلى آخر علماً أن المنطقة كانت كلها مسيحية في الأساس بما في ذلك الحجاز وسبق لي أن قلت إن المسلمين هم ضيوف علينا نحن المسيحيين . وبما أن الحكام في البلدان العربية جميعهم مسلمون فليتركوا لنا لبنان في هذا التمييز الإنساني» .

وحول التقارب والانفتاح القائمين بين القوات اللبنانية وسوريا قال غبطته «في مفهومي الشخصي اننا يجب أن نكون جميعاً قريبين من سوريا . إن سوريا أساسية جداً ، بالنسبة لنا . لا نستطيع ولا نريد الاستغناء عنها . ونكون أغبياء إذا كنا لا نرى في يدها الكثير من مفاتيح الوضع اللبناني . إننا ملتصقون بسوريا . قدرنا من قدرها . وقدرها من قدرنا . أردنا ذلك أم أبيناه وأرادته أو أبته . ونحن وسوريا يجب أن تكون بيننا علاقات جيدة ومستمرة في جودتها .

لذلك فإن الخط (يقصد التقارب بين القوات ودمشق) هو خط طبيعي . ولكن هذا الخط يجب أن يكون مرسوماً جيداً .

«يمكن في المستقبل يطلع في سوريا واحد مش مليح بالنسبة إلى لبنان . ويمكن في المستقبل ، يطلع في لبنان شي واحد مش مليح بالنسبة إلى سوريا» ، لذلك ولكي لا تكون الأمور رهن العلاقات الشخصية ، فلتكن الأسس واضحة ، وليوضع خط واضح للعلاقة لا يحمل تأويلاً ولا يخضع للمزاجية والاجتهادات . مثل هذا الخط يجب أن ينطلق من المصالح المتبادلة للبلدين ، ومن الاحترام المتبادل بين لبنان وسوريا .

وعن مصير المسيحيين في الشرق قال غبطته ، نحن يجب أن نعمل مصيرنا ، يجب أن نتعمق أكثر فأكثر بتاريخنا ، بتراثنا ، بروحانيتنا ، بأرضنا ، ولا نتوقع أن أحداً في الشرق أو الغرب ، في الشمال أو في الجنوب يتولى هذه المهمة بالنيابة عنا» .

«الله وضعنا هنا كي نبقى . بدنا نبقى غصب . . فليفهم كل من يريد أن يفهم» .

نص الحديث

«الجمهورية» : صاحب الغبطة كيف تنظرون إلى لبنان في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخه ؟

هزيم : بما أن القادة أقروا أن لبنان دولة عربية ، يجب أن تكون استقلاليته مثل استقلالية سائر الدول العربية .

وهنـا يطرح السؤال ذاتـه ، ومنه ينبثق الجـواب : ما هي القواعد التي تتبعها كل من الدول العربية في سياستها ، وفي علائقها فيما بينها ؟

نحن مستعـدون لنقتدي بتلك القـواعد . . أجـل لبنـان مستعد للاقتداء بتلك القواعد ، لا أكثر ولا أقل .

ولننظر إلى الدول العـربية جميعـاً : إنها مختلفة الأنـظمة . فهناك الدول العربية ذات الأنظمة الملكية التي يحكمها ملوك وسلاطين وأمراء وشيوخ . وهناك الدول العربية الجمهـورية التي يحكمها رؤساء جمهوريات . وهناك أنظمة لا أعرف كثيراً عن طبيعة أنظمتها ، وهي حرة في ما اختارت من نظام ، مثل ليبيا ، حيث لا ملكية ولا جمهورية .

تلك هي الأنمـاط الثلاثـة من الأنظمـة التي تحكم الـدول العربية ، فلنضع هذه الحقيقة أولاً أمامنا .

ثم لننظر إلى لبنان ، نحن عندنا جمهورية في لبنان . ونقول للجميع ، تفضلوا اختاروا لنا أي جمهوريـة عربيـة ، ونحن مستعـدون لأن نـأخـذ بنـظامهـا ، بـالنسبــة إلى دور رئيس الجمهورية ولنطبقه في لبنان .

سوريا هي المثال الأقرب

ولعل رئيس الجمهورية ، في الجمهورية العربية السورية ، هو المثال الأقرب لنا في لبنان ، باستثناء أن الرئيس السوري ، هو في هذه المرحلة الأمين العام أيضاً للحزب . بينما الرئيس اللبناني ، وفق نظامنا وتقاليدنا ليس حزبياً، بل هو «فوق الأحزاب» ، ومن كان حزبياً قبل الرئاسة يتخلى عن انتسابه الحزبي .

المهم ، لنأخذ المثال السوري ، ونحن مستعدون لتطبيقه في لبنان . رئيسنا يجب أن يحكم مثله مثل غيره . وإلا يكون لبنان مختلفاً عن العالم العربي . وطالما ارتضى الجميع لبنان دولة عربية فلماذا مسموح في سائر الدول العربية ما هو ممنوع في لبنان . هذا أمر لا يجوز .

وهذه النقطة هي ، في تقديرنا ، بالغة الأهمية . أجل لا يمكن أن يطلب من لبنان أن يكون عربياً ، وهو ارتضى أن يكون ، ثم يحظر عليه أن يكون رئيسه حاكماً كما هم الحكام العرب على اختلاف أنماط الحكم في بلدانهم .

الانتماء الروحي

وإننا نسأل : هل لبنان ، أساساً ، مؤلف من أحزاب

سياسية ؟ صحيح أن في لبنان أحزاباً سياسية ، ولكن هذه الأحزاب ليست أساس تكوين لبنان ونظامه . فالأساس هو أن القوى في لبنان ذات انتماء روحي معين لكل منها هذه هي حقيقة واضحة ليس في استطاعة أحد نكرانها .

هل في مقدورنا أن نقول إن حركة أمل ليست شيعية ؟ أو هل في استطاعتنا أن نقول إن الحزب التقدمي الاشتراكي ليست أكثريته درزية ؟ أو في استطاعتنا أن نقول إن القوات اللبنانية ليست ذات أكثرية مارونية ؟ ثم أو ليس «اللقاء الإسلامي» سنياً صرفاً ؟

فلماذا التعامي عن الوضع الطائفي في لبنان ؟

بل ، لماذا نكران الوضع الطائفي في لبنان ، أو لماذا التنكر إلى الوضع الطائفي في لبنان . إنه حقيقة راهنة ، حقيقة قائمة ومعروفة وفاعلة في أساس النظام اللبناني .

وأيضاً : لماذا نعتبر الطائفية في لبنان بعبعاً ؟

ومن قال إن الطائفية بعبع ؟ ولماذا يجب أن تكون بعبعاً ؟ .

إنها نمط من الأحزاب في وطن حيث الانتماء على أساس روحي .

مع فارق بين الطوائف والأحزاب أن الأحزاب يمكن أن

تعمل انقلابات ضد بعضها البعض وهذا ما لا تفعله الطائفية .

فلماذا لا نتطلع بإنصاف إلى الواقع ؟

ولماذا لا ننظر بصراحة وصدق إلى الواقع ؟

ولماذا لا نتعاون بإخلاص في إطار هذا الواقع ؟

إن ما يأخذونه على لبنان موجود في كل مكان في الدول العربية . ولكن لبنان وحده المتهم ، ودائماً .

فأي دولة عربية ليس عندها الحس الديني بنوع من الأنواع ؟ إن ما هو موجود في لبنان موجود في شكل أو في آخر ، في مختلف الدول العربية .

لماذا نختبىء في خيال إصبعنا؟ لماذا نبني من الواقع الطائفي قضية سلبية ، بينما يمكن الاستفادة من إيجابيات هذا الوضع ، وهي إيجابيات كثيرة لو حسنت النيات ، وصدقت الطوايا وخلصت المقاصد .

المدى السياسي أبعد

ويمضي غبطة البطريرك في هذا الكلام المسهب عن نظرته إلى لبنان في المرحلة الراهنة التي يجتازها فيقول :

وفي هذا السياق يبقى أن القوى الثلاث التي تتحاور لا

تمثل كل لبنان . وهي ذاتها لم تقل إنها تمثل كل لبنان وإن كان لها ثقلها ووزنها على الأرض . وإلا لما كانت عمدت إلى مشاورات مع الأطراف والفعاليات الأخرى . كل منها في ساحته .

إن المدى السياسي أبعد من أن يوقف قتالاً .

إن هناك فرقاً كبيراً بين أن تقول للجيوش : «أوقفي القتال» وبين أن تصوغ مستقبلاً . أجل ، الفرق كبير بين هذا وذاك ، فهلا أدركنا ، جميعنا ، هذا الفرق الكبير .

إلغاء الطائفية

ويواصل غبطة البطريرك هزيم شرحه المسهب للوضع اللبناني فيقول :

ويحدثونك عن إلغاء الطائفية السياسية . هذا الكلام الذي يتردد في هذه المرحلة على كل شفة ولسان . من هنا وهناك . من الذين يعرفون ومن الذين يجهلون .

وفي هذا المجال ، مجال الكلام على إلغاء الطائفية السياسية أنا لي رأي أقوله لكم اليوم : لنبدأ بإلغاء المذاهب . . . أقصد لنبدأ بإلغاء المذهبية السياسية داخل كل مجموعة طائفية لبنانية .

ويشرح غبطته هذه الفكرة :

لنبدأ في القول : مسيحيون ومسلمون ، بدل أن نقول : سنيون وشيعة ودروز هناك ، وموارنة وأرثوذوكس وكاثوليك وسواهم هنا .

فليتفضلوا إلى تحقيق ذلك .

لماذا نقفز عشرين متراً القفزة الواحدة ، وهي قفزة مستحيلة . فلنقفز خمسة أمتار .

ويستدرك غبطته : لسنا نريد أن نتحدث في العلمانية فندعو إلى اعتمادها ، ذلك أن هدفنا ليس أن نتحدى أحداً .

ثم يتابع : هذا العالم العربي ليس عالماً مسلماً . فالدول العربية حكامها مسلمون . صحيح ، ولكن هناك بين شعوبها نسبة من المسيحيين ، تختلف من بلد إلى آخر . علماً أن المنطقة كانت كلها مسيحية في الأساس بما في ذلك الحجاز ، لهذا سبق لي أن قلت إن المسلمين هم ضيوف علينا ، نحن المسيحيين .

وبما أن الحكام في البلدان العربية جميعهم مسلمون فليتركوا لنا لبنان في هذا التمييز الإنساني ، ولسنا نقول تمييزاً حضارياً ، بل نكتفي بالقول التمييز الإنساني .

ويستأنف البطريرك هزيم كلامه في موضوع إلغاء الطائفية السياسية فيقول :

الأساس ، في نظرنا ، هو إلغاء الطائفية المذهبية كلياً بين المسيحيين وكذلك إلغاؤها كلياً بين المسلمين .

أنا ، الأرثوذوكسي ، حقي أن أكون موثوقاً بي مسيحياً . ثم هؤلاء المسلمون الذين يتضامنون ضدي كل يوم سأختبرهم إلى أي مدى هم متضامنون فعلاً .

وبعد أن يتحقق ذلك ، أي إلغاء المذهبية داخل الطائفتين المسيحية والإسلامية ، يجري انتخاب مجلس نيابي على أساس المناصفة (فيفتي - فيفتي) .

وفي هكذا مجلس ، فالأكثرية تكون ضمن كلّ جهة فالمجموع ، وليست أكثرية المجموع فحسب .

ويشرح غبطته الفكرة فيقول :

بعد أن تتم المناصفة في المجلس النيابي تتحدد الأكثرية داخل الجهة المسيحية ، وتتحدد الأكثرية داخل الجهة الإسلامية ، وتكون الأكثرية العامة هي مجموع الأكثريتين . أما أن تكون هناك أكثرية مؤلفة من مجموع النواب المسيحيين

يضاف إليهم ، مثلاً ، نائب مسلم واحد ، فهذه ليست أكثرية مصير الوطن وإما أن تكون الأكثرية مؤلفة من مجموع النواب المسلمين زائد نائب مسيحي واحد ، مثلاً فهذه ليست أكثرية تقرر مصير الوطن .

الأكثرية التي يحق لها أن تقرر مصير الوطن اللبناني بعد تحقيق المناصفة داخل مجلس النواب هي الأكثرية المختلطة المؤلفة من الأكثرية داخل المجموعة المسيحية والأكثرية داخل المجموعة الإسلامية .

مثل هذا الأمر يقيم عدالة ، ويحقق التوازن ، ويرفع الخوف والغبن معاً . أما «الأكثريات» النظرية الأخرى ، في حال اعتماد المناصفة في مجلس النواب ، فهي ليست الأكثريات التي تعبر فعلاً عن ضمير المواطن ومصلحة الوطن .

ثم نحن نمارس هذا الشيء في مجلس كنائس الشرق الأوسط الذي تدار أموره على أساس عائلي وليس على أساس عضوي فحسب ، حتى إذا غابت عائلة واحدة من عائلات المجلس اعتبرنا أن في الأمر نقصاً ، وربما أوقفنا المقررات أو التدابير إلى أن يكتمل عقد سائر عائلات المجلس .

فما أحوجنا في لبنان ، إلى مراعاة هذه الحقيقة ، فنسهم في

تحقيق العدالة وإحقاق الحق وتوفير المساواة وهو ما يفترض أننا جميعاً ننشده إذا كنا ، فعلاً ، في صدد البحث عن صيغة ترسم للبنان معالم الطريق والحياة في المستقبل .

الاتفاقات والمعاهدات

ويسترسل غبطة البطريرك هزيم متحدثاً في الشأن والشجن ، فيقول :

إن لبنان وطن مستقل . لقد نال استقلاله بإجماع إرادة بنيه ، وبإقرار ودعم دول العالم .

وفي إطار الاستقلالية التي تتمتع بها دولة من الدول يمكن البحث في مجموعة اتفاقات تدرس ومعاهدات توقع .

ولكن لا يوجد أي دستور في العالم ينص على أنه يفرض على دولة من الدول أن تدرس وتقر وتوقع . فلماذا يكون ذلك مفروضاً على لبنان ؟

واستطراداً : كما هو مطلوب من لبنان أن يكون موضع ثقة الآخرين ، كذلك مطلوب في المقابل من الآخرين أن يكونوا موضع ثقة لبنان . إن الاحترام المتبادل للسيادة الوطنية وللكرامة الوطنية هو أقل ما يمكن أن يكون مطلوباً، وإلا فإن كل شيء ، سوف يبنى على زغل ، وعندئذ لن تكون النتائج

المستقبلية (وربما الآنية أيضاً) إلا مخيبة للآمال .

وطالما نحن في مجال الثقة ، فالثقة موجودة في سوريا . ولكن لماذا يكون على أن ارتبط بالمستقبل . وأن أربط نفسي في المستقبل بما قد يصبح قيداً في حال لم تعد الثقة موجودة . يعني الثقة الموجودة اليوم في سوريا من يضمن أنها ستبقى موجودة بعد ٥٠ سنة أو بعد مئة سنة . فلماذا يرتبط لبنان ، أو يراد للبنان أن يرتبط بما قد ينعكس عليه سوءاً وشراً وضرراً بعد ٥٠ سنة أو بعد مئة سنة ؟

ومن هو الذي يستطيع أن يقول ، منذ اليوم ، ماذا يصير بعد ٥٠ سنة أو بعد مئة سنة ؟

الذي يستطيع أن يجزم بأمر في الرد على هذا السؤال ، فليتفضل !

لبنان والعروبة

ويضيف غبطة البطريرك قائلاً :

أما عن لبنان والعروبة ، وعن المسيحية والعروبة ، فيا أخي هات كلمة عربي ، وضع منها قدر ما تشاء ، وارسم الصليب بكلمة عربي . . عربي . . عربي . . من فوق إلى تحت ، ومن اليمين إلى الشمال . ولكن شرط أن تكون كلمة

عـربي ذات مفهوم كمثـل المفهـوم المعتمـد في سـائـر الـدول العربية ، فلا يكونُ لها ، هنا ، مفهوم ، وفي الدول العربية الأخرى مفهوم أو مفاهيم مختلفة .

هناك ، في الدول العربية كلمة العروبة لا تعني قضاء على الدولة ونفياً للشخصية .

فالأردن عربي . ولكنه أردني .

والعراق عربي ولكنه عراقي .

وسورية عربية . ولكنها سورية .

. . . وهكذا دواليك في سائر الدول العربية .

ومثل هذا المفهوم لا يريدونه أن يـطبق على لبنـان . إنهم يريدون نفياً للشخصية اللبنانية وقضاء على الدولة اللبنانية . وهـذا خطأ شنيـع ، إضافـة إلى أنه ظـالم . ثم هو أمـر غـير مقبـول . ولأن هـذا المفهـوم لم يتبلور بعـد رأينـا كثيـراً من الأضرار التي أصابت لبنان في شعبه وفي كيـانه وفي مقـوماتـه الوطنية .

سوريا والقوات اللبنانية

وتوقف غبطته عن الكلام فسألناه :

«الجمهـوريـة» : مـا رأي غبـطتكم ، يـا سيـدنـا ، في

التقارب والانفتاح القائمين بين القوات اللبنانية وسوريا ؟

البطريرك هزيم : في مفهومي الشخصي أننا يجب أن نكون جميعاً قريبين من سوريا . إن سوريا أساسية جداً بالنسبة لنا . «ما فينا وما بدنا نستغني عنها» . ونكون أغبياء إذا كنا لا نرى في يدها الكثير من مفاتيح الوضع اللبناني .

إننا ملتصقون بسوريا . قدرنا من قدرها ، وقدرها من قدرنا . أردنا ذلك أم أبيناه ، وأرادته أو أبته .

ونحن وسوريا يجب أن تكون بيننا علاقات جيدة ومستمرة في جودتها .

لذلك فإن الخط (يقصد التقارب بين القوات ودمشق) هو خط طبيعي . ولكن هذا الخط يجب أن يكون مرسوماً جيداً . «يمكن في المستقبل يطلع في سوريا واحد مش مليح بالنسبة إلى لبنان . ويمكن في المستقبل ، يطلع في لبنان ، شي واحد مش مليح بالنسبة إلى سوريا» ، لذلك ولكي لا تكون الأمور رهن العلاقات الشخصية ، فلتكن الأسس واضحة ، وليوضع خط واضح للعلاقة لا يحمل تأويلاً ولا يخضع للمزاجية والاجتهادات . مثل هذا الخط يجب أن ينطلق من المصالح المتبادلة للبلدين ، ومن الاحترام المتبادل بين لبنان وسوريا . وعندما يكون منطلقاً من هذا الاقتناع وعلى هذا

الأساس ، لا تعود الأمور ، ترتج ، مع ما يترتب على ارتجاجها من نتائج .

ويضيف : وإذا كان من الضروري التقارب والتعاون والانفتاح مع سوريا ، فهذه أيضاً نظرتي إلى المسلمين : هم هناك وأنت هنا : يقضي عليك ، أو أقضي عليه أو تفاهما . ولما كان قضاء البعض على البعض الآخر مرفوضاً وممنوعاً فالحل في الحوار ، والتفاهم والتعايش .

تكراراً : لبنان المستقل

ويمضي السيد البطريرك قائلاً :

إن لبنان بلد مستقل ، له خصائصه . فلا يزايدنّ عليه أحد ، خصوصاً في المجال الوطني . لا مزايدات على لبنان في الوطنية ، «ثم في ناس بيصنفوا ناس وبيسموهم وطنيين ، وبيسموا غيرهم انعزاليين» . . فمن هو ذلك الذي يملك هذا الحق المطلق في تصنيف الناس والأوطان ؟

وبأي منطق أو سلطان تتم هذه التصنيفات .

عندما يدرك اللبنانيون معنى الاستقلال ، لا شك في أن أموراً كثيرة تتبدل ، ومفاهيم كثيرة تتبدل ، وشعارات كثيرة تتبدل .

الوحدة والتوحيد

وينتقل غبطته إلى شأن آخر ، هو أيضاً على أهمية قصوى فيقول :

أما شؤون التربية فنقول ببصيرة حولها : لماذا توحيد الكتاب بين لبنان وسوريا ؟ أجل لماذا ؟ هل الكتاب المدرسي موحد بين سوريا والأردن ، أو بين سوريا والعراق ؟ أو بين هذه الدولة العربية وتلك ؟

ثم وهل الوحدة في أن يكون كل واحد نسخة طبق الأصل عن الآخر ؟

إن الله سبحانه وتعالى ، سمح للأم أن تولد ، في الحالات العادية ، كل ولد على حدة ، ولم تكن القاعدة في أن تلد الأم عشرة أولاد معاً ، لكي «لا يطلعوا مثل بعضهم » . . ومن باب أولى ألا يكون التشابه ، «طبق الأصل» ، بين الدول أيضاً .

إن المطلوب هو الثقة .

أما الفرض فمرفوض . لا يجوز فرض المواقف والالتزامات إننا نرفض هذا المنطق : «أنا مش مصدقك ، تعال امض (وقع)» .

هذا منطق ساقط ومرفوض !

إن كل اتفاقية جائرة لا تمشي ، وإذا مشت لا تعيش .

مقر البطريركية والإنشاءات

واستراح غبطته هنيهة من دفق الكلام فسألناه :

«الجمهورية» : كان تردد أخيراً أنكم عاملون على إقامة مقر ثابت للبطريركية الأنطاكية الارثوذوكسية في لبنان ، فيكون لها ، مقران ثابتان أحدهما هذا المقر ، حيث نلتقي غبطتكم في دمشق ، والآخر في بيروت ، ربما . فماذا استجد على هذا الصعيد ؟!

البطريرك هزيم : عندنا ، في لبنان مقر بطريركي في دير مار إلياس شويا . وطالما نحن في مجال المقار والمباني فإني آمل أن يكون عندنا كليات إضافية حول دير البلمند على كتف البحر في الشمال .

نحن الأرثوذوكس ، لا بد أن تكون لنا جامعاتنا ومعاهدنا كما لدى سائر الطوائف . وإننا ماضون في هذا المشروع بمساهمة كريمة من بعض من تعرفه «الجمهورية» جيداً (. . .) عندنا الآن كلية علم اللاهوت وفي العام المقبل ستكون لنا كلية التاريخ .

في المستقبل سنبني جامعة متكاملة لا تنقصها وحدة أو كلية

أو مجال من مجالات التدريس الجامعي التي يجب أن نعنى بها والتي تقدم الفائدة إلى الفرد والمجتمع .

واهتمامنا ينصب ، الآن ، على أن ننشىء في مستقبل غير بعيد كلية للطب . عندنا مستشفى مهم (يقصد مستشفى القديس جاورجيوس في بيروت) ، فيمكن لطلاب كلية الطب التي سننشئها أن يمارسوا اختباراتهم وتدريباتهم التطبيقية في هذا المستشفى ، كما يفعل طلاب الطب في المستشفيات .

إن المكان الذي سنغنيه ونغنى بواسطته هو لبنان . لبنان وحده فيه الحرية . . . هذا الكنز الثمين الذي لا نجده في المنطقة ، إلا في لبنان .

الشرعية والفراغ الدستوري

ومن المشاريع المهمة التي يسعى غبطته إلى تحقيقها يعود مجدداً إلى الشأن الوطني العام ، فيتناول بالكلام وضع الشرعية الدستورية في لبنان . قال البطريرك :

في مجال الحديث عن الشرعية يجب التفريق بين «الشخص» و«الرئيس» والسؤال هو : ماذا بقي من لبنان ليحكى عن لبنان ؟ لم تبق إلا العناصر الشرعية . دون رئيس

أو عناصر شرعية يقع لبنان في المجهول .

حذار ثم حذار الفراغ مهما كان الثمن . يجب أن نكون في غاية الحذر ، فلا نقع في لعبة الفراغ .

ثم من روائع نظامنا اللبناني أن ما من أحد في لبنان «مؤبد» فلا يجوز أن نخربط منطق الأمور . . ما بيجوز نقول للرئيس أو لمجلس النواب أي كلام في غياب البديل الذي يجب أن يكون متوافراً سلفاً .

حذار ، تكراراً ، الوقوع في لعبة الفراغ الدستوري . سيكون الثمن باهظاً جداً على لبنان واللبنانيين .

ثم ، إذا كان كل شيء مبنياً ، فقط ، على الأمن ، فتلك مأساة . الأمن مهم طبعاً ، وهو في حالة لبنان الشيء المطلوب بإلحاح ولكن الأمور يجب أن تبنى على الحوار السياسي أيضاً . الأمن يمكن فرضه بالقوة . ولكن أما تعلمنا من تجارب الآخرين في العالم ؟ أما عرفنا ماذا يعني الأمن المستتب القائم على يد قوة ضاغطة . أو لسنا نعرف نتائج تجارب القوة الضاغطة ؟

قد أكون أتكلم نظرياً أو كأنني أقدم فرضيات .

ربما . إلا أن ثوابت التاريخ واضحة للعيان أمام الجميع .

القمة الروحية

وانتقلنا مع غبطته إلى حديث آخر :

«الجمهورية » : حديث القمة الروحية لم يتوقف في لبنان ، وإن كانت سخونة الأحداث تبعده عن الواجهة أحياناً كثيرة . ومنذ زيارة غبطتكم الأخيرة إلى بيروت يستمر التساؤل : متى القمة الروحية ؟

البطريرك هزيم : الآن لا حديث في هذا الموضوع ، على الأقل معي . انا لست اليوم على علم بأي شيء حول القمة الروحية . وفي اعتقادي أن المناخ القائم ليس مناخاً يسهل للقيادات الروحية أن تكون فعالة .

في أي حال، إن العالم يشكو منا نوعياً ، نحن المسيحيين . ما عاد العالم ينظر إلينا كمسيحيين تهمنا الكنيسة والقيم . صرنا في نظر العالم مجرمين سفاحين . والواقع أن لدينا قيمنا العظيمة ، لدينا تاريخنا العظيم ، لدينا مثلنا العليا ، لدينا نور الحق الذي يفترض بنا أن نسير فيه . فهل نتحرك لنعيد إلى صورتنا بهاءها وألقها لنستحق انتماءنا إلى تاريخنا وأصالتنا وتراثنا ؟

المقيمون والمهاجرون

«الجمهورية» : كانت لغبطتكم رحلة مهمة إلى المهاجر ،

فتفقدتم أبناءكم في ما وراء البحور ، أي عبرة من الرحلة ؟

البطريرك هزيم : يجب وضع سياسة جادة في شأن المهاجر . وهذه السياسة لا يجوز أن تكون ، فقط ، في اتجاه واحد أي من الوطن الأم إلى المهاجر ، بل يجب أن تأتي أيضاً من المهاجر إلى الوطن الأم ، ليس دورنا فقط أن نعكس صورتنا (وهي معظم الأحيان بشعة) هناك في عالم الاغتراب فيتقاتلوا كما نتقاتل ، ويختلفوا كما نختلف ، على العكس ، يجب أن نتعلم منهم كيف يعيشون معاً في جدية ، وكيف هم مشهورون بوطنيتهم ، وبأخلاقهم . وبحفاظهم على قيم كثيرة افتقدناها ، نحن ، مع الأسف في الوطن الأم ـ وعلينا أن نكلفهم ، خصوصاً أن يظهروا وجه الإنسان المشرقي ، وجه الإنسان الحقيقي . وجهنا كما هو هناك ظاهر لهم وماثل في أذهانهم أن ما من اثنين ، عندنا ، يجتمعان ويتفقان ، فلنغير هذه الملامح البشعة .

ثم في مقدورنا أن نحمل المهاجرين روحانية الشرق كاختيار فريد فيغنوا العالم غير الشرقي . بوجودهم هناك في عالم غريب . دون هذا العنصر فإنهم سيفقدون كثيراً من معنى وجودهم وثقله هناك .

«الجمهورية» : هل من زيارة قريبة إلى لبنان ؟

البطريرك : طبعاً لبنان في الخاطر والوجدان والقلب . ولكني خشيت أن نفقد هناك النظرة الشاملة إلى الأمور . من هنا دمشق ، نرى الجميع . ربما أن نكون هنا في هذا الوقت ، يبقى أفضل ، من أجل رؤية صائبة . هنا تتوافر أقنية غير متوافرة هناك .

«الجمهورية» : **صاحب الغبطة ، لبنان إلى أين ؟**

البطريرك هزيم : . . . إلى لبنان . أجل لبنان إلى لبنان الذي لا نرضى عنه بديلاً لا من حيث الأرض والمساحة والبشر ، ولا من حيث النوع .

«الجمهورية» : **بعد تمكنكم من رؤية أصفى ، هنا عبر الأقنية التي أشرتم إليها غبطتكم ، هل من حل في الأفق ؟**

البطريرك : لا معطيات حسابية أو منطقية حتمية . إن الأوراق مخربطة ، وهذا يضع علينا مسؤولية كيفية ترتيبها . هذه مسؤوليتنا نحن .

«الجمهورية» : هل من خطر على لبنان ؟

البطريرك : نعم . . هناك خطر . . ليس على لبنان وحده بل على المنطقة أيضاً ، ولا حاجة لذكر التيارات التي تجتاح المنطقة من الجهات كلها .

ولكن لا نقصد أنه في أي وقت من الأوقات لم يكن الخطر

ماثلاً . إنه عنصر مرافق دائماً ويستدعي اليقظة والاحتراس وخصوصاً الجهد ، لكي لا يصبح هذا الخطر عنصراً غالباً .

«الجمهورية» : ما هو مصير المسيحيين في الشرق ؟

البطريرك : نحن يجب أن نعمل مصيرنا يجب أن نتعمق أكثر فأكثر بتاريخنا ، بتراثنا ، بروحانيتنا ، بأرضنا ، ولا نتوقع أن أحداً في الشرق أو الغرب ، في الشمال أو الجنوب ، يتولى هذه المهمة بالنيابة عنا .

الله وضعنا هنا ، كي نبقى .

«بدنا نبقى غصب . . . فليفهم كل من يريد أن يفهم» .

«الجمهورية» : كثيراً ما سمع منك اللبنانيون كلمة في الملمات .

غبطة البطريرك هزيم : في تصوري لا بد من شورى مسيحية أكثر مما يجري حالياً ، ويجب وضع سلم أولويات على أساس الأهمية ، فلا يضحى بالكل من أجل الجزء ، ولا بالكثير من أجل القليل ، ولا بالبعيد من أجل المباشر .

«خلينا نفتح عينينا شوي» !

الفهرس